تأمّلات في الأدب والحياة

892.74
A967tA

فصول وابحاث متفرقة

كتبت من سنة ١٣٥١ الى سنة ١٣٥٥ هـ

بقلم

محمد حسن عوّاد

مكتبة العرب
مديرها : صلاح الدين البستاني
٢٨ ش كامل صدقي (الفجالة) القاهرة

مطبعة العالم العربي بالقاهرة
الإدارة : ٥٣ شارع ابراهيم باشا (نام شيرد) ت ٤٤٧٠٦

AF 228
HJ7501A

٥٥٦١٩ خزانة الكتب ١٥٦١ خزانة تيمور

تأليف

تم بحمد الله

اهداء

يتشرف الأدب الذى ازدهر فى عصر صاحب الجلالة الملك المعظم عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية أن يهدى أحد منتجاته إلى اسم جلالته ، لا للحلية فحسب وانما للذكرى والفخار ؟

المؤلف

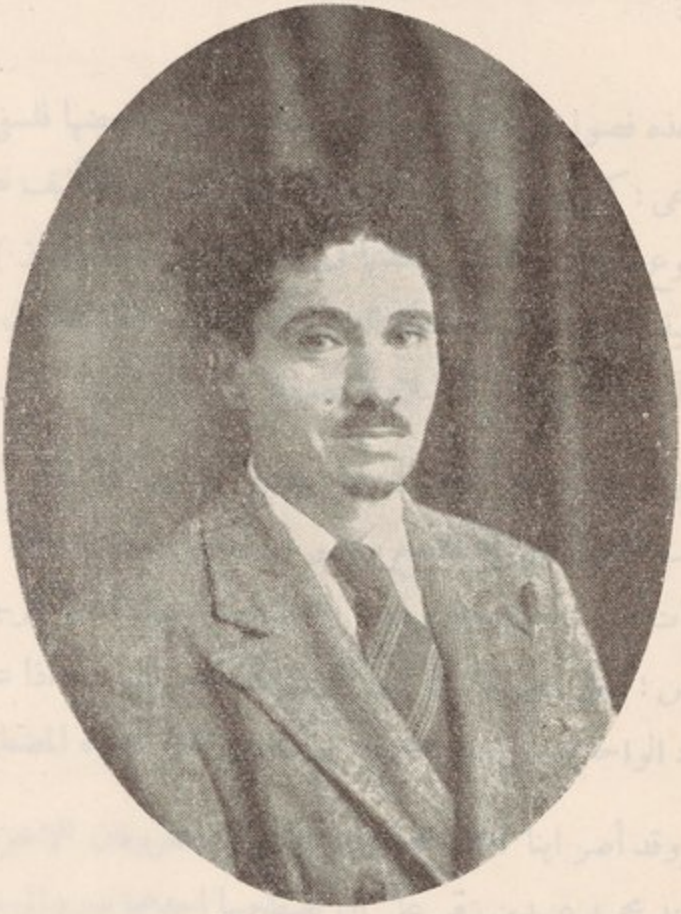

المؤلف

سفائیلا

مقـــدمة

هذه فصول وابحاث ومطالب ، بعضها ادبى ، وبعضها فلسفى ، وبعضها اجتماعى ؛ كتبت فى فترات مختلفة وعلى غـير قصد لتأليف كتاب فى موضوع واحد ، وقد نشر بعضها فى صحيفة (صوت الحجاز) التى كانت الصحيفة الوحيدة فى المملكة العربية السعودية ، وقد استبدل مؤسسوها اخيراً بهذا الاسم اسم (البلاد السعودية)

وقد جمعت هذا الفصول قبل بضع سنوات ، على أمل ان تطبع فى مطبعة الشركة العربية للطبع والنشر ، ولكنها مكثت هناك حبيسة عدة سنوات لغير ما سبب معروف ، وبحيلة لبقة استطعنا أن نخرجها من ذلك المحبس ؛ لكى نهيء لها أن ترى النور وان تشع بالنور ، اذا عد تفكير الفرد الواحد نوراً يهدى اخوانه فى دامس ظلام الحياة المضطربة .

وقد أصر ابنا الخال العزيزان التاجران المعروفان الاخوان عبد الله وسعيد محمد عبيدبن زقر على ان يصطحبها احدهما معه الى مصر فى هذه السنة ليطبعها ، فقدمتها اليه غير مغتر بما تحويه من افكار وتعابير ؛ فانما العهد بها بعيد منى ، وكنت افضل لو انها قبرت الى الابد فقد نفضت يدى منها ، غيران الرغبة فى اجابة الاخوين ، وبقاءها امامى تطالعنى كل يوم ، والامل فى ان يتناولها الادباء والدارسون بما شاءوا من نقد أو مناقشة ، كل هذه أسباب تجمعت لدفعى الى تسليمها للمطبعة . لم ابدل منها شيئاً وان

كنت قد حذفت فصولا برمتها لو ضمت إلى هذه لبلغ الكتاب اربعة أضعافه أو يزيد .

فإن احسنت فشكراً لله ، وان اسأت فعذرى فى الإساءة انها عنصر لابد منه من عناصر حياة الانسان .

١ رجب سنة ١٣٦٩
جدة
١٨ أبريل سنة ١٩٥٠

محمد حسن عواد

الانسان والحياة

ما من ذرة من الذرات التى تلتئم منها الكائنات الحية واجزاء الكائنات ، إلاوهى تكاد تعلن عن نفسها فى صور من التعابير شتى متباينة ، وفى اوضاع من مظاهر التعابير عديدة ، فمنها ما يهمس بخفاء جرس لا تحس به إلا العقول المتعمقة والشعور الدقيق فى غير ان يكون لهمسه هذا نصيب من ادراك الافكار العادية العامة ، فى حين انه يوجد بين تلك الذرات ما لا يعرف همس التعبير للاعلان عن نفسه وعما يقوم به من عمل ضئيل او غير ضئيل ، فهو يجنح اذن الى الجهر كما يصنع اقوى الخطباء وامهرهم ؛ فى وطيس الحماس ، وبين تلك الذرات ايضاً ما يأخذ مكانة التوسط فى ظهوره للعالم المنتشر ، وفى الحياة كوائن تتماوج ما بين تلك الدرجات الثلاث ، ومنها يأخذ « الانسان شكله فى كينونته الذاتية ووجوده الاجتماعى . والانسان هو الكائن الراقى الذى يقوم بأهم دور يمثله كائن فى الحياة ، وهو الموضوع الجدير بالعناية والدرس اذا تصدى الدارسون لفحص عناصر الاحياء ، وهو « الحى » الذى يسطو بقوة الحيوية فيه على ما يحيط به من اشكال المواليد الطبيعية ، وان كان ينكل كثيراً عن التغلب على معظم تلك المواليد ، بيد ان نكوله هذا لا ينقص من قيمة تفوقه النوعى فى عالم الاحياء ؛ فى هذا الكائن الكبير الممتاز تصرخ الحياة المتبصرين قوية الصوت رنانة اللحن حماسية الإلقاء ثائرة

مندفعة ، لأنها هى ذاتها تملؤه بكل ما فيها من قوة الحلول ، وتسوق اعصابه القوية الى العمل والحركة والسير والدفاع والمهاجمة والنقل والهدم والتأسيس والتعمير والتخريب ، وتحفز دماغه المدهش القوى الفعال الى التفكير والفلسفة والتأمل والانتاج العلمى والنظر الى جوانب العالم الفسيح لتغيير الاوضاع الممكن تغييرها والاستبدال بها أوضاعاً تمتزج مع الحياة البشرية العامة فتكون مجتمعاً قديراً نافعاً ، واستبقاء الاوضاع التى لا تمس صلاحية الوجود بشىء من العقم ، وتقود عواطفه المدهشة الى الاتجاه فى سيل طالما اقامت وأقعدت وفعلت اعاجيبها فى تقويم الخلق وتدريب النفس على حمل اعباء الحياة والصبر لما تتطلبه من جهاد .

لمدهش جداً هذا الكائن العظيم ! وقديماً ما تنبه الى عظمته الاقدمون فلقبوه بالعالم الاصغر كما لقبوا الكون بالعالم الاكبر وقال شاعرهم يخاطبه :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

وما بالمستنكر ان يكون للانسان مثل هذه المنزلة فى الوجود العام ، وكم فى الانسان من دروس تلقيها الحياة على الانسان نفسه وكم فيه من كفاية قوية لاقتبال تلك الدروس وفهمها وتطبيقها ! وما معلمه الاكبر سوى عقله واحساسه ، وفى هذين تظهر جلالة الله وعظمته ، وكفى علماً بعظمة الله ان تدرك انه خالق العقل وخالق الاحساس . . . ! إذ قوة الاحساس هى التى تقذف من هذا البركان الحى (الانسان) حمم العواطف الجبارة الهائجه ، وما تستحدثه العواطف من آثار عديدة لها

مفعولها الذي لا يحد ، وقوة العقـــل هى التى تخرج من معمل الانسان منتجـــات التفكير وحسب الانسان عظمة ان تندفع عنه امثال تلك المنتجات بجملتها وبتفصيلها : منتجات العواطف ومنتجات الافكار

العمل فى سبيل اللغة العربية

رسالة مفتوحة (١)

الوجيه الفاضل صاحب صوت الحجاز !

ابادرك بإرسال كلمتى الآتية حاوية شكرى وغبطتى لجهودكم المستمرة فى اعداد المواد الادبية والعلمية القيمة لجريدتكم الغراء ونشرها على القراء المستفيدين والمعجبين والناقدين بين كل وقت وآخر مما يدعونى الى الافصاح عن هذا الشكر والغبطة الاكيدين . وثق انى انما اقصد بصفة خاصة من كلمتى هذه بحثاً كان يبدو لى انه متسلسل وانكم ستنشرونه متوالياً اسبوعاً تلو اسبوع حتى ينتهى ، وقد نشرت منه صحيفتكم مقالين ليس الا فى عدديها الخامس والثلاثين ثم الثامن والثلاثين بعنوان : « كلمات شاع استعمالها ملحونة — دعوة الى اصلاحها خدمة للغة والادب » بقلم عبد القدوس الانصارى ، ولجد نافع هذا البحث المشكور ، ولكم كانت غبطتى شديدة عندما تصفحته ووددت ان لو يتابعه كاتبه الاديب حتى يأتى على ما عنده وما اعده منه لهذه الغاية من الكلمات الشائع استعمالها ملحونة فيخرج من هذا البحث بمجموعة لغوية صالحة من الكلمات المستعمله بعد ان يتنبه الشادون فى الأدب الى صورتها الصحيحة الواجب استعمالها بها !

ولقد طرق هذا البحث من قبل الاديب الانصارى كتاب عديدون

---

(١) كانت هذه الرسالة كتبت وارسلت الى صاحب جريدة صوت الحجاز فنشرها فى العدد ٤٢

اذكر منهم الآن المرحوم الفقيد الشيخ ابراهيم اليازجي الذى الف فى هذا البحث كتابيه « نجعة الرائد » و« لغة الجرائد » فنقد فيها الكتاب العصريين ولا سيما محررى الصحف فى كثير مما يستعملونه من الالفاظ والعبارات الاصطلاحية فكان الصائب الموفق المحمود ، والاستاذ اسعد داغر المحرر بجريدة الاهرام فى كتابه « تذكرة الكاتب » الذى ذكر فيه ما يربو على ثلثمائة كلمة خطأ الكتاب فى استعمالها ولكنه هو نفسه جاء خاطئاً غير مصيب فى جميعها ، وقد نقده المجمع العلمى العربى فى دمشق على صفحات مجلته المسماة بهذا الاسم ، وارجع عليه كثيراً مما نقده واعترض فيه على الكتاب ؛ دون صواب ولا تؤدة ، ويحضرنى الآن من ذلك المردود الفاظ « محاضرة » و « تحرير » و « غاو » (Amateir) واذكر انى كتبت نقداً لهذا الكتاب أثبت فيه كثيراً من تحامل المؤلف وافتياته على الكتاب بملاحظات دونتها ، وافقت فى كثير منها آراء المجمع العلمى ، ومن هؤلاء الباحثين فى هذا الصدد الشيخ ابراهيم المنذر عضو مجلس النواب اللبنانى الذى الف كتاباً فى هذه الناحية وسماه « كتاب المنذر » وبعث بنسخة منه للاستاذ مصطفى الغلاييني ليبدى فيه رأيه فوجد الغلاييني معظم ما اعترض به المنذر على الكتاب العصريين غير موفق فيه للصواب فرد عليه بكتاب سماه « نظرات فى اللغة والادب » بلغ حجمه حجم كتاب المنذر .

ونحن ياسيدى الفاضل إنما نرمى بهذا البيان وهذه الكلمة إلى اشياء تهم الادب الانصارى وتهم الشاردين فى الادب والمتعسفين فى الكتابة على حد ســـواء .

نريد اولا ان نستحث همة هذا الكاتب الى موالاة هذا البحث الذى

يجب ان يكون منا بموضع غبطة ورعاية ، فهو سيفيد جداً اناساً كثيرين قل محصولهم من اللغة العربية وضؤلت معارفهم فيها وخلا وفاضهم من المكنة من قواعدها المصححة المقررة فاكتفوا بما لا يجوز ان يكفى من الدرج على ما اساغه العرف .

ونريد ثانيا أن نلفت نظر هذا الباحث وهو فى أول بحثه الى الحيطة والحذر فى تتبع الكلمات التى ينقدها ويلاحظها على الكاتبين على أساس انها ملحونة قبل أن يقرر فيها حكما وأن فيها مما هو أبعد الالفاظ عن اللحن والخطأ وأعرقها فى الاستقامة والصواب فلانحسب أن يمضى الأديب على طبيعته من دون أن يميز فى نقده بين الملحون حقيقة والملحون وهما وبين المستعمل شذوذا والمستعمل اطرادا ، وبين الشائع والصحيح وما تلتقى فيه الصحة بالشيوع ، وهو بهذه القاعدة فى التمييز والتفرقة يستطيع أن يخدم لا اللغة فحسب ولكن الفن أيضا وما فى الفن من روعة وذوق .

ونريد ثالثا أن نمهد الطريق باستحثاث هذا الأديب العامل فى متابعة سيره فى هذا البحث الذى بدأه ، لابراز عمل أدبى كنا شرعنا فيه منذ سنوت وعاقنا عن اتمامه المثبطات الكثيرة كما عاقتنا عن غيرة وعاقت غيرنا عن مثله ، وفى مقدمة هذه المثبطات عدم انتعاش الروح الأدبى واستعداده فى الحجاز . أما هذا العمل الأدبى فكتاب لغوى مختصر الفنا جانبا منه جعلناه على طريقة القواميس والمعاجم فهو عبارة عن « قاموس » صغير يوضع فى الجيب يطبع بالحرف الدقيق ليستوعب مواد جمة مع صغر حجمه . وقد رتبناه على طريقة المصباح المنير وأقرب الموارد التى تبدأ بأول حرف من الكلمة ثم الثانى ثم الثالث وهكذا ، لاعلى طريقة أصحاب الصحاح والقاموس

ولسان العرب التى تبدأ بآخر حرف من الكلمة على أنه الباب ثم بالأول على أنه الفصل ، وكنا شرعنا فى تصنيف هذا المعجم لطلبة المدارس والراغبين فى الاطلاع ، والذين تضيق بهم أعمالهم عن البحث والمراجعة فى القواميس المطولة بضبط صيغة جمع ، أو معرفة مصدر يقاس على فعله أو التحقق من كلمة سماعية أو حركات لفظة . أو نحو هذا مما يعيب الكاتب — أى كاتب كان — أهماله فلا يعسر على هؤلاء حملة فى الجيوب والاستفادة السريعة الممكنة منه ، ووصلنا فيه الى حرف الحاء ، وسنتممه عند سنوح الفرص ان شاء الله .

وليس هذا المعجم بجاف الوضع ولكنه على طريقة جيدة جداً ، يلاحظ فيه الفن الكتابى ونماذج البلاغة فى التعبير ، فلم نكتف بذكر معانى الكلمات وتصريفها ، بل اثبتنا العبارات المجازية أيضا بأوسع وأدق مما صنعه الزمخشرى فى قاموسه المسمى (أساس البلاغة) وكتبنا فى أول هذا القاموس مقدمتين لازمتين للمطلع الأديب ، وها نحن أولاء فى انتظار الفرصة الجدية لنقدم لبنى امتنا ولغتنا ووطننا هذا الكتاب الذى سيحمدونه فيما أثق .

فعلى الأديب الانصارى اذن أن يمهد لنا طريق ابراز هذه الفكرة — التى بدىء فى عملها — فى القريب العاجل بموالاة أبحاثه التى تساعدنا على إشراب الجو بروح التيقظ الى الاعتناء باللغة العربية ، وإنا له لشاكرون ولعمله وأمثاله من الأدباء لمقدرون .

وكما نوهت بفضل الانصارى وشكره فأنى بهذه المناسبة لا أنسى أن أشكر وأنوه أيضا بفضل الأديب جعفر عوض فى تقدمه الى المجتمع بمقاله

عن « اللغة العربية الفصحى » ودعوته الى تعميم استعمالها فى المدارس فهذان أديبان يظهران فى هذه الآونة يعضدان هذا الموضوع لاريب انهما يشكران على ما يستثيران فى الأمة من الروح الأدبى القويم فحيا الله الهمة والفضل والأدب والتحمس للغة فى شخصيهما الكريمين

ونريد رابعاً ، بعـــد الشكر والثناء والاعجاب طبعاً — أن نعتب على الأديب الانصارى فى قطعه سلسلة هذا البحث المفيد ، ولا أخليك أنت أيضا من العتب بصفتك صاحب الصحيفة ، اذ فى مكنتك أن تستحث الأديب ليوالى جهوده فى نشر بقية المقال ، فعسى أن يلقى عتبى لديكما مـــكانه الرحب من الإصغاء والمجاوبة المجدية .

وتقبل أيها الفاضل مزيد تحياتى واحترامى

احترام النفس

قال لى رجل محترم كبير على أثر حادث كان بينى وبين أحد العلماء ما معناه : أرأيت لو مضيت على طيتك موغلا فى مناقشة صاحبك على الاسلوب الذى كنت تتخذه فى المناقشة الجدية معه ، وهو أسلوب الصراحة والمضى فى الاعتداد بآرائك إلى حد لا يبقى معه السامع معترفاً بتفوق مناقشك العظيم عليك بل يضعك فى صفه جنباً الى جنب ، ثم لم نتدخل نحن فى حسم الخلاف بينكما . ماذا كان ينتج من تلك المباحثة ؟

قلت : ماذا غير أن تؤيد الحقيقة على يد أحدنا فى غير أن يكون شأن للمنزلة فأنا انما أجادله لهدم أوهامه أو نظراته التى لا أراها إلا تافهة غير واضحة حتى عند صاحبها نفسه ، ولا أحاول أن أهـــدم مكانته الشخصية عند من يحفلون بها .

قال : ولكن ألا ترى أنه خجل من نفسه ، وقد أبصرنا كلنا كيف كانت يده ترتعش وهى قابضة على عضادة كرسيه ! وكيف كانت نبرات صوته تصور أقوى خلجات نفسه الضعيفة المنهزمة ؟ وكيف كانت سحنته تربد قليلا قليلا وأنت ماض فى حديثك لا تدركك نفحة من نفحات الرحمة ولا يرف عليك طائف من طيوف العطف !

قلت . ليست هذه جنايتى ، ولكنها جناية الظروف التى انطقت صاحبى بما كانت تهجس به نفسه ، وتركته يعتبر تلك الهواجس الحمقاء

قانوناً يسيطر به على تفكير الآخرين غير مكترث الا لنفسه ولا عابئ بمن تحمل هذه الكرة الأرضية اذ هو لا يبصر على سطحها الا مكانه الضئيل ليس غير ، فهل ترانى اجرمت حين أشعرته أن على الأرض من أبناء أبينا آدم من يفقه لمكانه بين أفراد الاسرة الآدمية ؟ واذا كان الشيخ قد الف من شتى المرائى وصور الانفس ما غذى خياله بوهم بسط جناحيه على مخه الكريم مؤداه ان الناس امام عظمته ما بين مأخوذ بروعتها الفاتنة قد قصرت به مواهبه أن يلحق بها أو يقبض على أذيالها الطويلة الأهداب ، ومتغاض لا يرى لمهانة نفسه أن يعلن رأيه فى موضوع المناسبة ، اذا كان الشيخ ألف ذلك فليس مما يستسيغه المنطق فى مذهبى أن أطأ الحقيقة بقدم الاجرام الاجتماعى الذين يطلقون عليه خطأ فى معظم الاوقات اسم « التواضع » أفلا ترى من الاثم أيها العم ! ان يأتى المرء بكابوس ثقيل من سخافة الخلق المتكلف المرذول فيخمد به انفاس النفس المستوفزة للدفاع عن فكرة يمازجها الاحساس بعظمة الحقيقة فى مجال الحديث المباح ؟ للنفس الانسانية حرمة واجبة الاداء ، وليس تنازل الانسان عن اعلان رأيه امام من لا يكرثه تقدير الاراء والحقائق إلا صورة مجسمة للعبث بكرامة النفس واضاعة احترامها المحتم .

القيت بهذه الثرثرة امام ذلك الصديق القديم وكنت انتظر منه أن يصارحنى أنه استمرأ منطقى هذا بعد أن تذوقه وهو يخلط التثاؤب بالابتسام ، غير أنه هز رأسه وقال :

— ولكن صاحبك رجل طيب

ولم أشأ أن أقفى على حديثه بما يفسد عليه رزانة الكهولة ووقارها فيخرجه الى العجلة فى الحكم على ذلك الصاحب الذى كان يجله أو يجامله فابتسمت صامتا وألقيت بيدى الى أصابعه وكان قد أخذها ليمدد زمن الحديث ، وسرعان ما استحالت غاية محدثى من فتح المحادثة فى شأن قصتى مع صاحبى ، لقد كان يقصد المشاغبة وتمضية الوقت واسداء النصيحة إلى غير انى أحسست التحول الهائل فى غايته وأيقنت أنه استمرأ منطقى فى فلسفة احترام النفس فلمحت أنه يرغب الاستزادة من هـــذه الفلسفة وعليه بعد تبعة التسمية .

كان هذا فى وقت الصباح ، وكان فى جمال الشمس الصافية ما يبرر استمرار البقاء فى رحبة دار الصديق الضاحية ، وكان فى صمتى وجولاتنا أفق أطلق فيه لفظة الاستزادة :

— هيه !

فقلت نعم هو طيب بلا ريب ، ولكن ما دخل أن يكون الرجـــل طيباً فى أن يلمسنا الاكتشاف ؟؟ موضع الركاكة واتهام فى أسلوب تفكيره ثم هو لا يريد أن يتحمل مواجهة حرارة الشعور من جانب غيره بالايمان بما يصدمه به فى حرية وصراحة لا تستجيب لهما نفسه المتمردة على الحق ؟ مثل هذا يامولاى لا يزيدنا الا احساساً بوجوب الاحترام لأنفسنا ، إذ أظن أن احترام النفس هذه المواقف اجدى فى استلهامها مواقع الصواب وأشد لصوقاً بمعنى الحياة وطبيعة الواجب ، واذ كيف يستطيع الاهتداء فى طريق المعرفة من يمضى إلى تلمس الحقائق بنفس مهينة مستضعفة لا يأمن

أن تقطع عليه الطريق هاربة متوارية تحت ظل المـــذلة وضئولة الشان وخفوت البصيرة ؟ وكيف يستطاع الاحساس بالحياة لمن يدين بإنكار الذات والتهاون بالنفس ، ولاسيما فى مواقف أشد ما يحتاج فيها المرء لتقدير مواهبة أمام نفسه ليفهم أنه انسان له ما فى الإنسانية من مميزات ؟ وكيف يستبيح لنفسه الدخول فى مأزق البحث والمناقشة من لا يقنع نفسه قبل الاشتباك فى مواضيع البحث بأن له غاية سامية ينشدها هى الوصول الى الفهم واقناع الغير بصحة ما هو فاهم ؟ كل هذا وان شئت فبعضة مبرر للمرء أن يثق بنفسه ويحترمها فى مشتبك الحديث الدائر على محور البحث والمرء باحترام نفسه أحرى فى كل مظهر من مظاهر الحياة . . .

تقول ان هذه فلسفة ، هذا لا يهم فلتكن فلسفة أو فكرة أو مذهباً أو معتقداً يرجع إلى الوجدان قبل مرجعة إلى المنطق أو التجربة ولكن يبقى معنا أن احترام النفس أمر يقره الطبع الممتاز .

مواضيع الحياة العامة

إذا تسامحنا قليلا فى التعبير وقسمنا هذه الحياة التى يزاولها الناس فى عموم أقطار الكرة الأرضية على مختلف طباعهم ومشاربهم وطبقاتهم ونواحى تفكيرهم ، نجد أمامنا أن الحياة موزعة النواحى مقسمة إلى عدة أقسام ، وهى التى أسميها هنا بمواضيع الحياة ، وكل من الأحياء يعالج فيها موضوعه الخاص منساقا اليه بدافع الغريزة التى تهديه أو البيئة التى تؤيده أو المصلحة التى تقوده أو الثقافة والدراسة التى تكيف تفكيره و توجه جهوده العلمية والأدبية إلى نواح معينة . اذن فللانسان فى هذه الحياة دوافع قوية تتركه يعالج مواضيع الحياة مختاراً أو غير مختار منقاداً بحكم الغريزة الهادية أو البيئة الآوية أو المصلحة الداعية أو الثقافة المكيفة ، فمثلا الرجل السياسى الذى يعارك نظريات السياسة ويدرسها ويفكر فيها ويعمل بها ويطبقها على نفسه وعلى بنى بيئته وأفراد وطنه بل وأمته وكل من حوله ومن يرتبط به من الأمم ، انما يعالج هذا الموضوع — وهو طبعاً احد مواضيع الحياة — محكوماً من احدى هذه الدوافع مضطرا أن لا يشذ عن ما لديها من مناهج وخطط مادام يعمل مسيراً غير مخير ، وما دامت له حاجة ملحة ترغمه على أن يعمل ليشق طريقه إلى الفوز الشريف وإلى ضمان طمأنينته على سعادته واطراد عيشه وحفظ كيانه بين أفراد الخليقة التى هذه خطتها وهذا دأبها منذ أن كانت السماء والأرض ومنذ أن كانت الخليقة خليقة والعالم عالما .

نكتب هذا ونحن نحاول أن نرسم للناس بيانا عن خطة هذة الصحيفة[1] فى سيرها الاجتماعى بين الطبقات ، والطبقات هنا فى الحجاز من أشد طبقات الناس تبايناً واختلافاً وتوزع ميول . والفردية فى الرأى معززة بالحماس للفكرة الشخصية شيء يكاد يكون ميزة معظم الشرقيين عموماً ولا اظلم الحقيقة فأقول الحجازيين فقط ، فطبقة تدين بالرجعية مثلا لا تؤمن بغيرها ، وأخرى تعتقد التطرف الراد يكالى - إذا استعرنا التعبير السياسى الافرنسى - وثالثة تريد التجدد المعقول الحر ولا يعنيها التطرف والشذوذ ، ورابعة تبغى الجمع بين نهج وآخر ، ولله ما أشد ما يضحك هذا الابتغاء ويربك ، وخامسة ترضى بأى المناهج ولا يهمها إلا شيء واحد هو أن لا تفكر فى شيء من هـــذه التقسيمات أو مذاهب السير الحيوى وسادسة لا ترضى بشيء ويهمها دائماً ان تحيا بتشوش فكرى مؤلم يؤخر طرائق السير ويضطر السائرين إلى مجانبتها وازدرائها لأنها تقول ولا تعمل وتثرثر ولا تفكر وتصيح ولا تهتدى ، وفيما بين هذه الطبقات أفراد منقسمون على أنفسهم : رأى الصديق غير رأى صديقة وخطة القرين عكس خطة قرينه وأحياناً لا عكس ولا تعاكس ولكن تضارب مشوش ممسوخ لو مدت اليه يد العلم والثقافة لهذبت من فوضاه الصماء وفتحت من عينه العشواء ما هو فى أكبر الاعواز إليه

ونحن لا نشكو هذه الفوضى فى الميول والآراء وإن كنا نئن منها ونتمنى زوالها وحلول اليقظة من نظام محلها ، لأننا نعلم أنها طبيعية فى الشعوب التى ليس لها كيان علمى وليس منبثا فى طبقاتها روح الصناعة والزراعة

(١) كتبت هذه المقالة افتتاحية لصحيفة صوت الحجاز عدد ٧

والعمل والآداب ولكننا نشكو خلوها من النظام ووسائل الظهور ، مما يجعل السير الصحفى ممنوءاً ببعض العسر ، لا بل بكله ، فالصحافة يهمها انتظام الآراء الفردية التى يتكون منها الرأى العام . وأية صحافة - أيها القارىء لا تستضىء بضوء الرأى العام ولا ترتكز عليه فى سيرها وبحثها ونقدها واقتراحها وغربلتها وايلامها وارشادها وتهذيبها ؟ ؟

أية صحافة فى العالم لا تتصل بهذا الرأى العام ولا تسعى لأن تخدمه كما يجب؟ ومادامت هذه غاية الصحافة فأنى تسهل أمامه الخدمة المبتغاة ؟! ولكن لا بأس مهما وجدت المعذرة فاننا مرغمون فى هذه الأحوال أن نسير بهذه الصحيفة على خطة قومية مرضيـــة ننظر فى أصلح الأمور لمراعاة فائدة الطبقات فاتحة صفحاتها وأبوابها للجيد النافع المرجو منه ما يسمو بالبلاد إلى طبقة سعادتها واطمأنينتها ، وما يثقف الذهن أو يهذب الخلق أو يجرى مجرى الرشد والاعتدال فى السياسة والاجتماع والأدب وطرائق الفكر ومذاهب الرأى ، فان مسيراً غير هذا المسير لا يمكن أن يكون بين هذه الطبقات ، وإن الحياة نفسها لتوحى الخطط إلى السائرين .

الشعر والفلسفة

فى قصيدة نظمتها منذ سنوات أقول :

وهل كنه هذا الكون الا حقائق تصورها الأذهان كيف تشاء

وهو معنى فلسفى يوافق تماما رأى الفليسوف الالمانى « عمانويل كانت » الذى ثار به على الفلسفة القديمة ثورة فكرية كان مفعولها القوى اذ يقول هذا الفيلسوف : « إن كيان الطبيعة فى ظاهره انما هو تركيب متخيل ، وان اشكال الفهم هى التى تؤلف النظام الظاهر للاشياء » ولكنى عندما نظمت البيت المتقدم وهو جزء مندمج فى سلسلة من التصورات الفكرية تقوم عليها القصيدة التى مطلعها :

حبيبة قلبى لوعرفت بلاءه لأقصرت لومى والحياة بلاء

لم أقر ذاك متأثرا بفلسفة « كانت » هذه ولم يخطر ببالى تماما ما قاله هذا الفليسوف ، فهى نتيجة احساس حاضر قذفت به البديهة إلى العقل المفكر فطبعة بطابع الفلسفة ، فالفرق بينى وبين « كانت » إذا صحت المقايسة فى هذه النظرية هو الفرق بين خواطر البديهة والأحساس الثائر المفكر من جهة ونتائج التفكير الطويل الموجه عنايته إلى دراسة الحياة من جهة أخرى ، وان شئت فقل هو الفرق بين بداهة الشعر وتأمل الفلسفة ، وهذه هى النقطة التى يفترق عندها الشعر والفلسفة ، وفى الوقت نفسه هى الملتقى الذى يندمج فيه الاثنان.

فأما الافتراق ، فمن حيث ان الشعر وحى النفس المتأثرة التى لا تبعد كثيراً فى الشبه عن عدسة الفوتوغرافية فتنعكس عليها صور المرئيات فتعكسها هى بدورها « فوراً » على اللوحة والفيلم كما هى ، من غير أن تبدل من حقيقتها الا بقدر ما فى النفس من استعداد للتفكير وتكييف المعانى بقالبها الخاص ، ولكن الفلسفة نتائج بطيئة لتفكير مستمر منظم يقلب حقائق الحياة ودقائقها فى صمت وبرود ويقابل بين الأشياء ثم فى النهاية يكون رأياً باتا يحكم به حكما عاماً يشمل الوجود .

وأما الالتقاء ، فيتبين فى ذلك الانطلاق الذى تنطلقه الخواطر الحرة فى جو التأثرات العاطفية العميقة ، كما تنطلقه الأفكار الهادئة المسوقة بدافع البحث وجاذبية التصور ، فيحلقان معاً فى جو واحد يرسلان منه رسالة الشعر ورسالة الفلسفة .

وواجب فى نظرنا أن يتحد الشعر والفلسفة ، وبعبارة اجلى أن يكون شعر الثقافة الحديثة فى العصر الحاضر فلسفيا عميقاً جذاباً ، إذ ما قيمة الفكر الثاقب المتسلط على أعماق المسائل الانسانية ، مهما تباينت القابها اذا كان هذا الفكر لا يصنع شيئا قيما فى اكتشاف مجهول من عالم المجهولات يتوارى فى محيط النفس أو فى سراديب السريرة وما قيمة هذه الحياة الفياضة الثروة بشتى المباهج والمتع والحافلة بصنوف الفكر والأعمال ، إذا كانت واقفة موقف العجز عن استشفاف ما هو مخبوء وراء الظنون والفراسة واكتشاف المعارف المهمة

وهكذا لا تزال البديهة تقذف بأوحالها متسائلة ومستنكرة تقوب

الفكر وفيضان الحياة وثرثها مع هذا العجز الفاضح ، فيكون الشعر الفلسفى هو الصدى الرنان الذى يجيب عن هذا التساؤل والاستنكار ويكون هو الواسطة التى تحمل هذه الصورة القوية فتجمل بها وجه الحياة .

وللعلم صله وثيقة بالشعر لكنها صلة تكميل فحسب ، فإن صلة الفلسفة به أوثق وأكبر ، لأن فى طبيعة العلم البت والاستقرار وبروز الحقائق المجردة ، عكس ما فى طبيعة الشعر ـ والأدب كله ـ من الترجيح ونموج العواطف وتجاذب اصداء النفس ولمعان الالتفاتات الذهنيـــة وحرارة التصوير ، من كل ما يستلزمه الخيال ، ويستدعيه التأثير على النفس ونقل الأحساس من مستواه إلى حيث يستحسن الأديب

وهذه الخصائص الشعرية والأدبية نفسها تجدها فى طبيعة الفلسفة بأنواعها ولهذا فأن الصق العلوم بالادب هى العلوم التى يغلب عليها التموج والجاذبية والانطلاق .

ثم ليس معنى ذلك ان الأدب المطبوع بحاجه صارخة إلى هـذه العلوم كلا هذا مستحيل فالأدب ليس بمحتاج إلى العلم الاحتياج ترف وتحليه ليس إلا ، لا احتياج ضرورة ينقص بنقصها جوهره أو يتلاشى ، فهذا رأى فج لا بد من طرحه والاعتراف الصريح باضمحلاله وفساده ، كلما تقدمت الأفكار وتوغلت العاطفة الانسانية فى تقدير نفسها ، وذلك ما تضمنه حضارة المستقبل كنظرية بديهة مرتكزة فى تقريرها على بذور وأسس من حضارة الحاضر تتصل بسبب من حضارة الماضى أيضاً ، لا سبيل

لشرح براهينها واستيعاب درسها هنا فى حكمة موجزة أو تأملة واحدة غيران ما فى طبيعة الأديب الكبير نفسه والأديب القدير الموهوب - أى أديب قدير كان - من الاستعداد لفهم مهمته وطبيعة فنه بوضوح ، كافل بتقرير رأينا هذا الذى لا محيص للأديب المفكر من وجوب فهمه متى كان يشعر لنفسه باحترام وتقدير.

رجولة كاملة

لعل الرجوله لا تكمل ، أو لا تكون قريبة من الكمال — فالكمال المطلق محال على الانسان ـ الا اذا برزت فى كثير من مظاهر الإنسانية المعروفة . فالعالم مثلا لا يكون رجلا كاملا أو قريبا من الكمال اذا فقد ميزة الشجاعة ، وظل فيها مغمورا متخلفا ، مهما كان كبير العلم ، والحاكم لا تكمل رجولته اذا تأخر أو نقص فى ميدان حرية الفكر مهما تناهى فى عدالة الحكم ، والجندى لا تكمل رجولته اذا تخلف فى موهبة العقل وحسن التصرف مهما برز فى ميدان القتال .

وهكذا تستطيع ان تمضى فى ضرب الأمثلة على هذه الأقيسة .

وفى رجالنا البارزين من يتمتعون برجوله كاملة قد لا يكون من حسن حظنا الاطلاع عليها لاسباب متعددة لانتفاء توفر الفرص لاختلاطنا بهم واكتشاف رجولتهم عن كثب ، او تقصيرهم هم أنفسهم فى ابراز رجولتهم للرأى العام ، واكتفائهم ببعض النواحى التى ملأت نفوسهم وشغلت تفكيرهم وحالت بينهم وبين الإنتفاع من تقدير الرأى العام للرجولة الكاملة المدفونة فى شخصياتهم .

ولقد أتيح لى ولغيرى فى هذه البلاد ان نعرف شخصية فذة قادرة على ابراز رجولتها الكاملة فى عديد مظاهر الانسانية .

هذه الشخصية هى شخصية صاحب المعالى وزير المالية الشيخ عبد الله

السليمان ، فكلنا نعرف هذا الوزير العظيم فى ميدانه المختص ، وهو الميدان الذى يقوم فيه بالاضطلاع باعباء أضخم وزارة وأوسعها حيث يديرشئونها بمواهب فريدة ممتازة يبلغ بها غايات تضرب الرقم القياسى فى سياسة المال واستثماره واكتشاف موارده بصورة تجعل رفاهية الدوله أمرا مرموقا بالتقدير والإعجاب من جلاله الملك وسمو نائبه ورجال حكومته وأفراد شعبه وعقلاء البلاد الاخرى فى الشرق والغرب .

ولا تقف الصورة الباهرة عند هذا الحد فى السياسة المالية .

ولمكنها تظل مستمرة الاشعاع فى كيفية ضبط الموارد وحفظ منافعها واستخدامها فى أقوى المشروعات والأهداف التى يجب ان يستثمر المال الغزير من طريق تعميمها .

هذه المقدرة ، بل جانب واحد من جوانب هذه المقدرة كفيل ان يجعل الشخصية التى ينبعث عنها بسمة مشرقة فى فم الدوله والشعب ، وايقاعا فخما فى اغنية الملك والإدارة ، وفخرا هائلا يعتز به العصر والبلاد .

كان من الواجب ان لا يطلب الإنسان مزيدا من الاشعاع فى هـــذه الشخصية اللامعة ، فما وراء ذلك مزيد لمستزيد . ولكن هذه الشخصية لا تكتفى بصولتها الواسعة فى عالم الادارة المالية وانما تسعى الى الكمال بصور أخرى من البروز الذى يضيف الى الاكبار اكبارا ، والى الاحترام احتراما والى التقدير العظيم تقديراً عظيما لا يقل فى روعته عن هذا الجلال .

فكما برزت شخصية الوزير الكبير فى عالم المال برزت كذلك فى عالم

الخطابة والتوجيه الاجتماعى والسياسى ، لحيث استطاعت على البعد أن تجعل هذا القلم المتحفظ يرعف لا بمداد على الورق وإنما بموجة طاغية من الإعجاب فى صورة مقال قصير انتزعت كل لفظة فيه من عاطفة عميقة لا يثيرها الا أعنف الاثار الانسانية التى يجتمع فيها الإخلاص والقوة .

رأيت هذا الوزير الفذ وهو يلقى خطابا سياسيا مرتجلا فى اليوم السابع والعشرين من ديسمبر عام ١٩٤٩ فى الحفلة السياسية التى أقامتها الجالية الأندونسية فى جدة تخليدا لعيد استقلال بلادها ، فيأتى ببيانات ببنات تنطق فيها العقلية السياسية بلا تصنع ولا تزوير ، كما نطقت قبل ذلك البداهة المالية فى شتى أعمالها بلا تلكؤ ولا كلفة .

رأيت هذا وسمعته فقلت لجليسى على مائدة الشاهى . انى هذا الميدان أيضا يتقدم هذا الرجل الفذ وهو ليس بميدانه ، ويجيد فيه الكلام على غير استعداد للكلام ؟

قلت هذا مدفوعا اليه بعامل وجدانى خفى

فأجابنى صاحبى :

ليست هذه هى المرة الأولى يظهر فيها الوزير خطيبا فى الجماهير ، فقد شاهدته يخطب مرتجلا كذلك فى حفلة البنك العربى التى أقامها لبعثته فى هذا المكان .

قلت أجل شاهدته أيضا تلك الحفلة ، فلم يستثر اعجابى فيها قيام معاليه خطيبا اذ ذاك فأنما كان يشرق فى أفقه الطبيعى ، فحفلة البنك حفلة مالية

اقتصادية ، وليس بمستنكر عليه أن يتكلم فى حفل المال والاقتصاد عن موضوع المال والاقتصاد ، فأن اعجابى به هنا لا ينصب على نقطة انطلاق لسانه بالخطابة ، ولا على تبريزه فى الارتجال ، وإنما أعجب لأنه وزير مالية لا وزير خارجية ، ومع هذا فهو يؤدى هذا الواجب العجيب كسياسى كبير وكأنما يتكلم فى موضوع اقتصادى بحت .

. . . .

ومن نواحى رجولته الكاملة ناحية ميله إلى الادب ، والى الدمقراطية وإلى صراحة الفكر ، فقد لمست هذا فى أحاديثه التى ينشرها على زائريه فى داره الانيقة ، وفى تلك الأحاديث نماذج لامعة من هذه الصفات لولا ضيق النطاق لسردت منها ما يشار كنى القـــارىء لمسه والإحساس به ، ولكن ما الحاجة إلى ذلك ومجالس معاليه مشهورة ظاهرة .

. . . .

هذه مظاهر صادقة التعبير من مظاهر الرجولة ، والرجوله الكاملة ، أو الرجولة التى تتسع فيها آفاق المقدرة حتى تشمل دنيا من المواهب والاعمال لا يزال مجال التنافس فيها دائميا إلى الصيال .

وفى مثل هذا فليعمل العاملون

وفى ذلك فليتنافس المتنافسون

بنيتو موسولينى

الآن وما بعد الآن الى ماتشاء الأقدار، ترفع إيطاليا رأسها فاخرة بزعيمها العظيم، وتهتز جوانب المملكة قائمة قاعدة بما أتاحته لها الاحوال السياسية وخلقته الظروف من ابراز هذا الرجل الفذ « بنيتو موسولينى » زعيم الفاشيت الذى خلق فى إيطاليا روحاً جديداً لم تعرفه نهضاتها السياسية الاجتماعية حتى ولا فى زمن « مازينى » و « كافور » و « وغاريبالدى »

ولايطاليا الحق البين فى ان تفخر ماطاب لها الفخر، بشخصية هذا القائد المحنك فأن النظم الروحية والأدبية والاجتماعية والسياسية التى أوجدها لها مما تشمله تعاليم الحزب الفاشيستى ويسير عليه الروح العسكرى وتؤسس عليه التربية التعليمية فى إيطاليا شىء ضخم ليس باليسير ولا بالضئيل، وهو شىء لا يقاس بالأرقام ولا بالمعايير الفكرية، فإنه فوق الصفة والحدود، وإن نتائجه العملية لما يعيد لايطاليا — لو نجحت كلها — مجدها اللماع فى عصر نهضتها الذهبية القديمة ويربى عليها بما ليس فى مستطاع الكاتبين ان يضعوا حدوده الآن .

وليس فى هذه الكلمة متسع لنذكر نهضة ايطاليا القديمة فى زمن الرومانيين ونصف مجدها الداثر بما فيه من اثر الفن الذى نقل عنها الى العالم المدنى وما فيه من أثر العلم وروح الصناعة ثم نكر راجعين الى عصر موسولينى العظيم خالق ايطاليا الجديدة لنقابل بين النهضتين ونرسم لكل منهما حدوده الواضحة ونستخرج معالمه لنثبت تفوق النهضة الموسولينية وعظم سريانها بهذا الروح

الذى نسمع به ونشهد اثره فيما لإيطاليا الحديثة من تقدم وتفوق فى الدول الاوربية الحاضرة رفعها بنسبة ٧٠ ٪ عما كانت عليه من قبل موســـوليني ومبـــادئه .

نكتب هذا بمناسبة كتيب جديد أصدره الأستاذ كريم ثابت محرر القسم الخارجى فى جريدة المقطم وصف فيه شيئاً من حياة موسوليني ، ومقابلته اياه فى قصر « كيجى » بوزارة الخارجية الايطالية بروما ، فاستغرق مائة واثنتين وخمسين صفحـة صغيرة اتى فيها على حياة الزعيم الايطـالى الكبير فى حداثته ورجولته الى تقلده زمام الاحكام فى ايطاليا . الى الزمن الذى قابله فيه فى قصر كيجى ، غير اننا نعرف ان موسوليني ليس بالرجل الذى يجب ان تعرو حياته او تنفصل عن حياة الأمة التى عمل لها حركتها وعن تاريخها لا سيما اذا كانت هذه الأمة عريقة فى القدم وحافلة بامجاد النهضات التاريخية كأيطاليا . فإن الحديث عن موسوليني يستلزم الحديث عن تاريخها بصفة تجعل الصلة مكينة بينة بين عقلية هذا الزعيم وتاريخ امته . فإن الحق الذى لا محيص عنه هوان السياسة الايطالية الحاضرة كلها عبارة عن جهود صرفها السنيور موسوليني لتقديم هذه الدولة والحاقها بالصف الذى يتبوأه غيرها من متفوقات الحكومات الاوربية المستعمرة الطامحة الى ما فوق ادراك ومرامى وجهود الرأى الحكومى القديم فيما قبل سنة ١٩٢٢ .

وللأرقام والمميزات المحسوسة قيمتها فى هذا الموضع ، فكان على الاستاذ المؤلف ان يضع بين ايدى قرائه بياناً مسهباً ناطقـاً بالفرق ما بين ايطاليا الأولى وايطاليا الموسولينية الحاضرة . وصحيح انه اشـار الى هذا الفرق فى الفصل الرابع عشر الذى عقده بعنوان « موســـوليني والدولة

الفاشستية » ، صفحة ١٠٦ » غير انها اشارة غير كافية فى كتاب يحـــوى ترجمة حياة سياسى عبقرى ، لأنها انما هى سرد لأعمال الفاشيست فى ايطاليا ، عليها صفة الجفاف والجمود ، فليس فيها الجاذبية التى ترجى من كتابة يقصد منهـا تصوير شخصية تاريخيـة بارزة بدلت الافكار والارواح والنظم وبعثت فى الشعب حياة غير الحياة الأولى ، لا سيما وهذه الشخصية ترى « أن الشعب الايطالى شعب « كائن » فقط وليس بشعب « حى » ففى الحالة الأولى : كل باعث سليم من بواعث الحيـــاة مفقود ، وكل حافز لليقظة والتقدم هادىء فكأن الانسان مضطر الى تقليد بعض الحيـــوانات التى تتظـاهر بالمـوت لتسلم من فجيعة الخطر ، ولـكن كل غزوة من غزوات التمدن هى مأساة وخطر فى آن واحـد ، لأن الفرد ليس شيئاً او هو على الاكثر جسر لا هـدف ، فيجب ان يحسب نفسه مباركاً اذا اتيح له فى بعض الايام ان يشق الطريق إلى المستقبل . إن خلق المستقبل هو الوسيلة الوحيدة للخلاص والتعزية . لقد ماتت الآلهـة وأقبل « يوم السوبرمان » كما يقول موسولينى نفسه فيما ينقله عنه المؤلف فى صفحة ٥٩ . وإذن فهـذه هى البذرة التى نبتت منها المزرعة الايطالية الحديثة ، وكنا نتلمس فى كتاب الاستاذ ثابت أن نرى نضـارة تلك الروح وبهجتها وجلجلة الحياة الجبارة فيها تبدو فى الغدران والجداول والثمر والأفانين وما إلى هذه من مستلزمات تلك المزرعة التى أكبرت إيطاليـا فى أعين الامم ، فـلم نظفر بطلبتنـا فى البحث ، ومع هذا فإنا نكبر عمل المؤلف ونستظرف كتابه الجديد .

والخـلاصة فإن موسولينى هو رجل إيطاليا الفذ ، وللبعض أن يعتبره أحد أفذاذ العالم الاوربى المعدودين على الاصابع ، وهو رجل كبير النفس

قوى الشكيمة واسع الأمل بعيد الطموح بارز الشخصية المتفوقة فى القرن العشرين . ويحسن بنا أن ننقل للقارىء شيئاً من كلماته وآرائه عن الفاشستية ليستطلع منها روح هذا الديكتاتور العبقرى .

قال فى كتابه الجديد الذى الفه بنفسه عن « الفاشيزم » وهو المذهب الفاشيستى :

« ان فكرة الفاشيست اللافردية تصر على اهمية الدولة وهى تستقبل الفرد عندما لا تتعارض مصالحه مع مصلحة الدولة بل تتفق معها ؛ تلك الدولة التى تقف كمظهر للرغبة العامة للانسان وكوحدة تاريخية تتعارض مع الحرية القديمة ، لأن هذه انكرت الدولة باسم الفرد . وبما أن الحرية نتاج حياة جماعة حية من الناس فإن الفاشستية تقوم بالحرية التى يجدر الحصول عليها وهى حرية الدولة وحرية الفرد فى الدولة »

« ان الافراد يجتمعون بالنظر لمصالحهم المتعددة ، وهم يؤلفون الطبقات والنقابات بالنظر لمصالحهم ونشاطهم الاقتصادى على اختلافه ، لكنهم قبل كل شىء يؤلفون الدولة التى ليست بقضية عددية ، أو قضية مجموع الأفراد الذين يؤلفون الأكثرية ، لذا فأن الفاشستية تعارض هذا النوع من الديموقراطية الذى يساوى الأمة بالاكثرية »

« ليس فى الفاشيزم جنس أو قطر جغرافى محدود ، بل شعب مرتبط بروابط تاريخية وجماعة موحدة مفكرة ومتشبعة برغبة فى الحياة والقوة والوعى النفسى والشخصيه »

« الحياة الحقيقية للشعب هى التى تجعلهم يشعرون بالوحدة المعنوية . »

« إن حق الاستقلال الذاتى لا ينبعث من شكل أدبى أو مثل أعلى للوعى النفسى أو من شعور واقعى ، بل من اظهار الارادة بنشاط ووعى نفسى وسياسى والاستعداد للبرهنة على الحقوق »

« ان الدولة الفاشستية كمظهر أعلى وأقوى للشخصية ، قوة روحية وهى تجمع كل حياة الفرد العقلية والاخلاقية » .

وقد ولد هذا الزعيم سنة ١٨٨٣ م فى قرية بريدابيو قريباً من مدينة فورلى من اب حداد أمى ، ثم دخل المدرسة وحصل علومه الابتدائية ، وكان يطمح ان يكون مدرساً فى إحدى مدارس فورلى ، وتقدم للامتحان لنيل هذه الوظيفة فحالت احدى الرسميات بينه وبينها فلم يحظ بها ، وهنا يقول صديقه الكاتب السويسرى وليم مارتن رئيس تحرير جريدة جورنال دى جنيف . « ولعل هذه الحادثة اكثر الحوادث تأثيراً فى حياته فلا شك أنه لو عين فى هذه الوظيفة وقنع بحكم تلاميذه بدل الأمة الايطالية كلها لتغيرت وجهة تاريخ ايطاليا ولظل اسم موسولينى نكرة فى الأسماء » .

ولما كبا دون هذا المطمح وأصبح فى فقر ظاهر توسط له اصدقاء أبيه فى تعيينه محرراً فى جريدة اشتراكية فى فورلى فنشر فيها مقالات جريئة لفتت نحوه نظر الحكومة ففر الى سويسرا ، ثم عاد الى ايطاليا ، فنظر اليه اصحاب جريدة « افانتى » بمدينة ميلانو كمنفى عظيم فعينوه رئيساً لتحريرها وكانت اشتراكية النزعة ايضاً .

ثم انضم الى الجيش الايطالى فى الحرب العظمى وكان فى نحو

الحـــادية والثلاثين من عمره وحارب فى خارج ايطاليا ثم عاد اليها وهو يحمل مبادىء وطنية جديدة تخالف المبادىء الاشتراكية ، فبثها بحماس فى طائفة العاطلين من الضباط والجنود والعمال الذين عادوا من الحرب ولم يجدوا عملا ، ثم ما لبث ان كوّن من هؤلاء جيشاً زحف به على روما فى سنة ١٩٢٢ م فتولاها واصبح زعيم ايطاليا الحقيقى .

الحالات السياسية والاجتماعية

والاقتصادية فى البلاد

استعراض وتقرير

الحالة السياسية ، والحالة الاجتماعية ، والحالة الاقتصادية ، فى هذه البلاد توشك أن تكون جد متشابكة ومتفاعلة تفاعلا طبيعياً متضامناً . ويستطيع المرء أن يقول أن إحداها نتيجة الأخريين، أو أن الاثنتين نتيجة الواحدة ، فسياسة الحكومة الرشيدة فى هذه المملكة من الناحيتين الداخلية والخارجية توحى مقدرات البلاد الاجتماعية فتكون أوضاع المجتمع الحجازى النجدى ، وإن شئت فقل المجتمع العربى السعودى ، هذا التكون الخاص السائر فى سبيله بحذر وأناة وانطلاق ، والذى أصبحت تتحلل أمامه مشاكل كانت معقدة وتتفتح له تدريجاً سبل للفهم والدراسة والاستفادة من الأشياء الجيدة كانت مستغلقة ، ثم هذه السياسة نفسها سالفة الذكر تطمئن قواعد ووسائل الاقتصاد ، وتجعل أهم موارد هذه البلاد ميسوراً موفقا . ولنضرب مثلا معروفاً لا نرى ضيرا من ذكره المعاد على الأقلام والألسنة ، وهو أنه حالما توطدت دعائم الأمن الشامل فى هذه المملكة ، وسادت هذه الفكرة فى أذهان الراغبين فى الحج توافد هؤلاء إلى الحجاز زرافات ووحدانا من كل حدب ينسلون ، وأصبحت قوائم الاحصاء لمقادير الحاجين تزداد أرقامها سنة فسنة ، حتى بلغ عدد الواردين فى هذا العام زهاء أربعين الفاً

أو يزيدون « راجع جداول الإحصاء الرسمية للحج » ونحن بضربنا هذا المثل المقرر فى الأذهان نصور جانباً من أبرز جوانب الموارد المالية هنا ، وفى الوقت نفسه نلمس الحقيقة من أوضح ملامسها ، ثم بسبب المعاقدات السياسية والتجارية بين المملكة العربية السعودية والخارج أصبحت التجارة نشيطة لا نقول نشاطا ممتازاً ولكنه نشاط نسبى نرجو أن يتقدم مع الزمن وأن تقوى أسبابه ودوافعه فيتوطد مركز التجارة وتصبح وعليها المعول فى هذه البلاد ويتبعها تقدم الصناعة والزراعة والتعليم بنشاط أهل كل قسم من هذه الاقسام .

والأدب ! ما شأنه وما صلته بالحالات الثلاث الكبرى المنوه عنها فى صدر المقال ؟ أجل له بها صلة تامة ، فإنه بتأثير استتباب النظم السياسية العادلة فى الحكومة ، وإعطاء كل ذى حق حقه من الحقوق الاجتماعية والمدنية ، يجد الأدب الناضج ثروة خصبة من الأفكار الجادة ، لا الهازلة وأنا زعيم أن سيسود شعر التفكير والحياة العميقة ونشر الرصانة والفن ، وسيحلان محل الشعر الفاتر المبتذل ، والنثر الأجوف المضطرب ، وسيصبح للأديب بفعل التطورات الحية المرضية مرتع خصب لوصف خفقات القلوب الصادقة ، وحركات المجتمع الجليلة ، ومجرى الأفكار النيرة ، وجمال الحياة المطمئنة ودقتها ، وبهذا سيزداد النظام قيمة واستقراراً ، وسيحل الاطمئنان والتقدم محل القلق والركود ، اللذين يظهران على بعض النفسيات عند كثير من المتأملين .

نعم إنه سيقضى شيئاً فشيئاً على آثار الاضطراب والضعف بفضل تقدم الرجال الممتازين إلى القبض على نواصى الأعمال المجدية والمراكز

الجيدة ، وتم حياة اجتماعية تبشر بالمستقبل الحسن فيها وفى سائر نواحى الحياة المتعددة .

ومما يلفت النظر فى الحياة الاجتماعية فى الحجاز ونجد سيادة هـذه الديموقراطية فيها ، التى لا تتكىء على نظم سياسية مختلفة الألوان كالنظام الفاشستى مثلا أو النظام الشيوعى أو الاشتراكى ، ولكنها تتكىء على دعائم الأخلاق العربية الاسلامية ، وهى تتكىء قبل هذا على فطرة العروبة وفطرة الإسلام الصافيتين النقيتين المنسجمة إحداهما فى الأخرى انسجام الماء النقى مع كأس الزجاج الرقيقة .

وعلى ذكر الديموقراطية السياسية فإننا قمينون أن نشير إلى أن هذه السياسة الراشدة التى تختطها حكومة بلادنا الفتية إنما هى سياسة الوضع الطبيعى والعدل الحازم والبساطة المستنيرة والصفو المؤدى حتما لأن يسود التفاهم والرضى وينبسط الشعور العام لنفاذ بصيرة القائم بالأمر والجالس على العرش والقابض بحنكته وسمو ادراكه على ناصية الحكم ، حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ، وتتضح معالم الكفاءة والأهلية لهذه البلاد حتى تتجسم أمام الناظرين بعد أن يقدح الزمن من زنادها شرارة المواهب المستسرة رويداً رويداً ، ولا بد للسائر أن يصل .

نكتب هذا لا تبشيراً بمستقبل بعيد ، ولا تخيلا لمركز ممتاز مستحيل نبغيه لبلادنا وأمتنا وحكومتنا ، ولا ترقباً لأمل خافت أو غير خافت يشغل منا موضع التفكير ، لا ، وإنما نقول ما قلناه ونحن على أبواب نضج فى الكفاءات الصحيحة يواجهه هذا الشعب العزيز ، وقد درس وتعلم

من شتى التجربات والمحاولات ، واستعد لأن يغتبط بنتائج تجاربه ومحاولاته ، وهو مستعد أيضا للأقدام على كثير من أمثال هذه التجاريب والمحاولات ، فهى كلما كثرت عنده كانت قوته المعنوية أشد وأجدى عليه بالفائدة ، ولن تخيب أمة تملك قوة التجربة وقوة الأمل .

ونصيحتنا للأمة أن تتمسك بأهداب سيرها المستقيم ، وأن تكون عملية بكل معنى الكلمة ، وأن تعير جانب الجد والاهتمام بشئون أفرادها ومستقبلها الاجتماعى والاقتصادى أعظم الأقساط من حياتها وتفكيرها ، وأن تتزيد مما هى قائمة عليه من هذا التعلق والإخلاص لمليكها زعيم الوحدة العربية العظيم ، وأن تعظم الثقة بنفسها ثقة توجهها فى طريق العمل المنتج فى شتى نواحى الحياة .

الحالات السياسية والاجتماعية

والاقتصادية فى البلاد

(٢)

عود على بدء ، وتفصيل بعد اجمال

كنا اقتضبنا الحديث اقتضاباً فى فصلنا الافتتاحى الذى عقدناه بهذا العنوان ، والذى نشرناه فى العدد ١٥٥ من هذه الصحيفة فى هذا المكان والذى كنا افتتحنا به عهداً جديدا من عهود الصحيفة له ما بعده ، وكنا لم نتبسط فى حديث هذه الحالات الثلاث التى نوهنا عنها ، وكان عملنا حينذاك ينحصر معظمه فى بيان الارتباط الطبيعى بينها . والآن نستأنف كرة الكتابة فى كل قسم منها اداء لواجب التفصيل الذى يتطلبه منا الرأى العام ، وللرأى العام حكمه على محررى الصحف فى كل قطر وفى كل وقت لأنه قوة أدبية تجب مراعاتها من جانب الصحافة على الأقل .

يقول قائل : ولكنك اطنبت فى التمهيد وأطلت المقدمة فما بال الموضوع؟ وأقول بدورى : حسبى مقدمة وتمهيدا وعلى بنحر الحديث .

الحالة السياسية

هذه المملكة العربية السعيدة باستقلالها والمتفائلة بمستقبلها والعابرة

فى طريقها إلى امتلاك النجاح ، لا تتأثر فى سياستها بقديم ولا جديد ، فلا تجمد عند خطة سياسية معينة ، ولا تقتحم مجالا سياسياً لا تمليه عليها طبيعة بلادها الجغرافية وتقاليد شعبها العربى ، ومصالحها الذاتية والمشتركة مع جيرانها وأصدقائها ، وواجباتها نحو من تحمل لهم فى عنقها أجل الواجبات بحكم الإدارة وحقوقها على هؤلاء الذين تدار شئونهم من قبلها بكل دقة وعناية . لاتراعى برنامجاً سياسياً صالحاً قبل أن تصهره فى بوتقة مصالح البلاد ومقتضيات الزمن وأحوال حياتها الخاصة ، ثم هى تقبل الصالح المفيد بهذا الشرط الأكيد دون مفاضلة أو ترجيح . تأخذ من قواعد السياسة القديمة أكثرها مرونة وأدناها انطباقاً على طبيعة هذا العصر الحافل بشتى الحضارات والذى يقسر ساسته وزعماءه قسراً على التسامح والانطباع ، وتأخذ من قواعد السياسة الحديثة أولاها نسبة للعروبة وأبسطها مثالا فى التقدير الاجتماعى . تحب الخير لجيرانها وتتفاهم معهم وتعطف على قضاياهم ـ كما قال زعيمها على رءوس الأشهاد ـ الأمر الذى ينتظر من مملكة مثلها تضم فى قالب محكم متين عدة مقاطعات هى : الحجاز ونجد وعسير ، وهى المقاطعات التى تكون قلب الجزيرة العربية ، ويقوم عليها عاهل تترامى إليه أنظار العرب بزعامة الوحدة العربية الكبرى التى تشمل اصقاع الجزيرة أو شبه الجزيرة . أجل هذا وأكثر منه مايجب أن ينتظره العرب من حكومة هذه المملكة ، وهذا وأكثر منه ما هى قائمة عليه سياسة هذه المملكة ، أو على الأقل ما هى مستعدة لأن تقوم عليه وتهذب من حواشيه وتتوسع فى فضائله فى المستقبل ، وما هى عاقدة عليه العزيمة براً بنفسها وحباً بجيرانها واراحة لغيرها واعلاء لمستقبل الدولة الاسلامية ، والحكومة العربية التى ستكون

صاحبة الشأن الاسمى فى سياسة المسلمين والعرب ، والتى ستقود لغة الضاد وأبناء الضاد إلى حيث تشاء عظمة اللغة العربية وعظمة تاريخها أن تصل إليه . وتسير هذه المملكة فى علاقاتها الخارجية مع الدول على قواعد التفاهم والتقارب وتبادل المصلحة — إذا امكنت — أياً كان شكلها ، وتتبع فى نظمها الداخلية الإدارية طرق الروية والأناة والأخذ بالأحسن ، فبسلطة الشرطة تراقب وتقبض وتحقق ثم تبنى أحكامها على نتائج معقولة يسفر عنها التحقيق الدقيق ، وبالقضاء تقيم الحقوق الشخصية والاجتماعية حتى يستقر الحق فى نصابه ، وبالادارات الاخرى الحازمة تضمن للشعب سيراً يرضى به الافراد والجماعات ، وتغتبط به الخاصة وتستسيغه العامة .

هذا هو برنامج الوضع السياسى لهذه البلاد تقريباً ، كما نفهمه ونتوقعه ، وهو جماع السياسة الدبلوماتيكية والإدارية بحذافيرها وطراز الإصلاح الجميل المطابق لطبيعة هذه البلاد على أقصى مداه .

الحالة الاجتماعية

أما الحالة الاجتماعية ، ونعنى بها علاقات الافراد والجماعات فيما بينهم ، فيتخلص برنامجها الواقعى فيما يلى :

ليست أخلاق الناس فى الحجاز وما يجاوره بالأخلاق الصعبة النابية التى تطبعها الشراسة والتنافر وحب السطوة والأذى ، بطابع يلحق هذه الأمة بالشعوب الهمجية أو المتوحشة كما هى فى شعوب عرفت بالتوحش والشذوذ ، كلا ولا هى بالاخلاق الرخوة المتفسخة التى ليس لها عماد من

قوة الشكيمة ، فلا كذلك ، وإنما هى لزم مابين الصلابة والسهولة ، يغذوها عرق العروبة الكريم فينبض منه دم الكرامة والرحمة والغيرة والنبل ، ويغذوها الاسلام فيديرها على المحبة المتبادلة والتساهل والصدق وإرادة النفع للإنسانية العامة ، فلهذا الاعتبار لاتقوم الاحوال الاجتماعية فيها على تضحية الفضيلة أوقتل الروح التلاؤمى ، ذلك بالرغم من أن هذا الروح لما يزل بعد فى حاجة شديد جداً إلى قوة يتدعم بها ليكون التلاؤم والتضامن بين الافراد والطبقات أكبر صورة من هذه الصورة الحاضرة واجدى عائدة على هذه الامة المفتقرة إلى الاتحاد والتفاهم الفردى والاجتماعى لتكمل لها أسباب النهوض ، وليمش فى دمائها عزم التضامن ، فهى تحسن صنعاً إلى نفسها لو لجأت إلى دعاية واسعة لبث روح التلاؤم والتماسك بين الأفراد ، وطرحت وسائل الشقاق والتباعد التى تدل على فتور العقلية الاجتماعية وانصرافها عن عنصر يفيد الأمة ويعلو بها سريعاً إلى مستوى النضوج الاجتماعى ، فإن علم الاجتماع يقرر أن امكان التغلب على المشاكل الفردية بصفة تطيل تلاشيها دليل على استعداد شعب لبلوغ مكانة اجتماعية بارزة ، وهو فى الوقت نفسه دليل أيضاً على صلاحية انبثاث روح القوانين الحية وانطباقها على طبيعة ذلك الشعب . ونحن فى درجة إذ نشعر أن شعبنا هذا صالح لشتى التجربات الاجتماعية المفيدة ومستعد تماما لتلقى دروس النهوض التى توجهها إليه الحوادث فتعلمه كيف يحتال على الشجاعة الأدبية التى تخرجه من حالة الخور والانقسام إلى حالة إصرار ثابت على التفانى فى وحدة قومية ترفع رأسه وتؤهله لأن يفتح فاه ويرفع عقيرته متغنيا بأنشودة التفوق واحترام النفس .

لا نريد ثرثرة الأفراد باللغو ، والدفاع عن النفس من طريق ملتوية وحمقاء هى طريق التعريض بالغير ، أو التصريح بتجسيم المعايب وتهويلها وادعاء ما ليس بالصحيح على حساب الأمة كما يفعل صغار العقول ، وضئال التفكير فى الأمم ، فإن من يقول غير من يفعل ، ومن يتلهى غير من يحس ، ومن يأتى السطحيات غير من ينحر الحقائق ، ومن يعوم على الشواطىء غير من يغوص فى الاعماق . ونحن لا نحب لأمتنا أن تكون « امة مهملة » غير عابئة بنفسها يلجأ أفرادها إلى الادعاء بدل العمل ، وإلى التظاهر بالاصلاح بدل التفكير فى الاستفادة من الإصلاح ، فهذه حالة اجتماعية وخلقية لا تتناسب مع كرامة الأمة المستعدة للرقى المنشود .

الحالة الاقتصادية

وتتبع الحالة الاجتماعية عندنا الحالة الاقتصادية ، غير انه وان كان وضعنا الاجتماعى يبعث على التفاؤل أكثر من التشاؤم - ولا تشاؤم فى حياة الامم الفتية - وهو إلى جانب الصلاح والقوة أكثر منه إلى الجانب الآخر ، غيران فى حالتنا الاقتصادية نقصاً جد محسوس ، واهم اسبابه الأساسية فيما نرى عدم نشاط الصناعة عندنا ، اما التجارة فهى وان كانت لا تستلزم رءوس الاموال الكبيرة فانها تستلزم شيئاً كثيراً من الأسس الضرورية لنشاطها ، والاعتماد على رءوس الأموال من حيث كانت كميتها يلزمه وجود رءوس الأموال نفسها ، وهذه لا تأتى الا من طريق الكسب الصناعى أو طريق الإرث المتروك أو طريق المقايضة أو الاقتراض ثم إن التجارة عندنا محصورة فى الاستيراد ، اذ ليس هنا ما نصدره

الا ما لايكاد يذكر ، ولو أن هنا صناعة محلية لتعادلت كفة التصدير وكفة التوريد ، ان لم ترجح عليها ، فنحن اذا دعونا الى تثبيت قدم الصناعة فإنما ندعو الى اعظم الطرق الاقتصادية فى العالم ، وقد نشأ من فقدان الصناعة فى الحجاز — بل فى بلاد العرب كلها — تهافت الشبان — على التوظف حتى تضخمت بهم المكاتب الحكومية والأهلية ، وليس فى هذا أى فخر لو أن البلاد ناشطة فى الصناعات او ميالة إلى تفضيلها على غيرها ، الامر الداعى إلى الأسف . والرجل العظيم فى نظرى من أهل البلاد والذى يحوز المنزلة الأولى فى خلود الذكر هو الرجل المثرى الذى يستثمر جانباً من ثروته فى احياء الصناعة فى هذه البلاد ، وليس هذا بالصعب على الاغنياء ، ثم هو ليس بالامر العبث الضائعة نتائجه ، فهو فوق ما يعطى من المجد اللامع والعظمة فى خلود الذكر ، يعود ايضا بربح مادى ، يتوزع على عدة افراد من الصناع ، وينال صاحبه منه اوفر الاقساط ، ثم هو يسترده شيئا فشيئا ويسترد اضعافه واضعاف اضعافه بمداومة العمل واستمرار الحركة الصناعية ، فى الوقت الذى يستفيد منه آخرون تغنوا بمجده وشادوا بعظمته الحقيقية كما فعل هنرى فورد ملك السيارات فى العالم وغيره من أبطال الرجال الماليين .

هذا هو العظيم حقا ، وهذه هى العظمة والعمل الخالد ، لا فتح مدرسة أو بناء رباط مثلا .

واذا قلت : « الرجل المثرى » فإنى لا أقتصر عليه ، ولكنى أعنى أيضاً الشركات التى يتآزر فيها الاشخاص ويتعاونون على تشجيع الصناعة وان

كانوا فقراء ، وان كانوا صغاراً ، وانى لمغتبط جداً بظهور الشركات الحجازية الحديثة ومعجب جداً برجالها الافاضل . فهذه الشركة العربية للطبع والنشر مثلا ، وهذه الشركة الاخرى لسير السيارات « وان لم يعملا شيئاً مجدياً للمجتمع حتى الآن » وانى لأومن أن ستتبعهما ثالثة ورابعة وخامسة[1] إلى ما يشاء نشاط المفكرين والمتمولين وصدق عزائمهم المشكورة المباركة من تعداد . أما ما احب أن يلتفت اليه هؤلاء المفكرون ومن فى صفهم من رجال شعبنا الممتازين فهو التفكير فى تأسيس شركة صناعية تعلم العاطلين والفقراء من أبناء البلاء أصول بعض الصناعات النافعة لتقضى على الفاقة وتبنى المركز الاقتصادى الحقيق الذى نتقدم به فى غير طنطنة أو تردد أو التواء

---

(١) لقد صدق تنبؤنا بعد عدة سنوات فتأسست شركة للكهرباء فى الطائف ، وشركة للكوكا كولا بجدة ، وشركة للانشاء ، وشركة للطحين بمكة ، ولكننا نريد شركات وطنية أخرى لصقل الجلود ولاستخراج الاسمنت والبترول ، ولصنع الأقمشة والصابون وغيرها .

علاقة الأدب بالعلم

ليس الاديب الفنان ـ كما يحسب الرعن ـ رجلا يحمل قلمه وطرسه ويجرى ، كل همه أن يكتب أو ينظم الشعر ، لا نزوة تجمح به الا وركب رأسه يبرزها الى الناس ، ولا فكرة يتخيلها الا ضرب لنفسه بسهم فى ذكرها ولو شائهة كسيحة جوفاء لا يرضاها الفن ولا يتحملها العلم ولا تمت بأية صلة الى قوة أو جمال أو صحة ، ثم هو بعد هذا أديب فنى أو فنان أديب ، وليس الا مخيلة المسكين محل هذا اللقب المكذوب ، لا أيها الرعن الواغلون ! انما الاديب انسان مثقف حظه من العلم والفكر والثقافة والتربية أكبر من حظه من تسويد الصحف ورصف القلم وعرض الجمل الهوجاء ، وإزجاء الكلام رغبة فى تقليد الممتازين أو مجاراة العباقرة ، ثم ليس وراء ذلك الصراخ والهرف إلا قطع الوقت بما لايغنى ولا يسد فراغا فى النفس ، ولا يجدد من حياة الفكر أو نشاط الملكة أو إرضاء الضمير .

أكتب هذه التأملة أو هذا الفصل الجديد وأنا تحت تأثير نشوة لذيذة بعثتها الى نفسى نزعة جديدة فى الأدب من تلميذ مهذب يدرس فى مدرسة الفلاح حيث وجدت فى نزعته هذه ـ التى سيعرفها القارئون ـ يقظة جديدة فى عالم الأدب تجعلنى أومن أن فى النشء من ستنفتح نفسه الى مذاهب الأدب الحديثة ، ومن سيأخذ بهذه المذاهب وأساليبها ومراميها على اعتبار أنها هى الأدب أو لبابه المنشود .

ذلك انه استلفت نظرى فى نزعة التلميذ انه يشعر أن للأدب صلة كبيرة بالعلم، ولا أخصص العلم وانما أعنى على الإجمال علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم السياسة الخ. والادب، لاريب متصل أكبر الصلة بالعلوم وان فات ذلك إدراك كثير ممن يعالجون الكتابة الجوفاء، أو الكتابة البسيطة، أو الكتابة التقليدية، أو الكتابة المفروغ من نشرها واستيطانها.

كتب الينا تلميذ يسألنا كما يأتى:

« اريد أن أعرض عليكم السؤال الآتى، وهو: مم يتأتى الوهم والتشكك وما علاج ذلك؟ » ولم أكن بالعازم على كتابة شىء عن عادة الوهم، وأحر بى أنى لم أكن بالعازم أكثر على مزاولة تحديد العلاج لهذا المرض، ولا محاولة اكتساحه من الأذهان، على أن هذا التلميذ الكاتب نفسه لم يكن ليطمع فيما أظن أن يرى لسؤاله صدى يتردد على صفحات الجريدة فى يسير من الزمن، وفوق ذلك يعالج موضوعه بعناية خاصة، ولكن لم لا؟ التلميذ نجيب حسبما توسمته فيه، وراقنى أنه يسأل عن الوهم، وراقنى أكثر أنه يضع السؤال العلمى موضع الأدب، وهذا شىء يشجعنا على التفكير فى حركة الآداب وإعطائها القدر الكافى من وقتنا وعنايتنا وإن كنا لم نفكر أن نفتح بابا للسؤال والإجابة.

الوهم فيما يعرف الدارسون مرض يعترى الأعصاب فتفقد قوة تصورها للمعنويات والحسيات، وهو ينشأ من صدمات عنيفة تصيب النفس فتؤثر على المخيلة والذاكرة. ومن أكبر صدمات النفوس التى تخلق مرض الوهم خلق الخوف الطبيعى إذا زاد معياره عن الدرجة العادية، فعلى

من يعذبه هذا المرض أن يحاول عمل الأمور الجريئة ، وأن يوحى إلى نفسه أن الوهم ضعف يجب التغلب عليه ، وأن يقنع نفسه أنه ذو قيمة تقدر فلا يحسن أن يسترسل إلى خزعبلات الأعصاب المضطربة ، وعليه أن يصنع كل ما من شأنه أن يساعد على تقوية الدم والأعصاب وملكة التأمل والتحقيق ، فيدرس ويكتب ويناقش ويتريض ويستشعر الحياة والجد من أى طريق يؤدى إلى القوة والنمو الحيوى والاتزان النفسى والمسرة والتفكير .

وبعد ، فواجب جداً أن يدرك لفيف الأدباء صلة الأدب الحى بالعلم ، واستقاء فكر الأديب الواصف للحياة من معين العلم المحدد اصول الغاية وغايات الحياة ودقائق الحياة ، إذ هيهات أن يقوم عصب الفن إلا على دم العلم ، وما انضب أن يكون الأدب ، وهو أجمل تعابير الحياة ، شيئاً فاقد الصلة بأكبر وسيله تنظم أحوال الحياة .

خواطر متداخلة

أأكتب عن النظام ، ما كيانه ؟ ما تأثيره ؟ مافائدته لحياة المجتمع ؟ واسرد مايسمح به الذهن من منطق وقيل ، هذا ما خطر لى ، وما سول لى احساسى بحاجة الرأى العام اليه أن أتحدث عنه ، وليس باللازم والمهم أن يكون الحديث هنا عن النظام محصوراً دقيقاً مائلا إلى البحث العلمى والتشريح الفلسفى ، والتحديدات المنطقية ، كما أنه ليس بالميسور لصحفى يحاول الاتصال بالرأى العام أن يحصر بحثه فى حدود معينة من الجدل ، ولا يستغرب الناس أن تكون خواطرنا هنا خواطر اجتماعية يدخل بعضها فى البعض الآخر ، ويلمس شىء منها جانباً نزاوله من حياتنا ، فحسب القارئين منا أن نحس وأن ننقل احساسنا إلى الطبقات ، وأن نشارك الرأى العام فى ما يخامره من مسرة ومساءة ، ومودة وموجدة ، وتفاؤل وتشاؤم ، وصعود بالفكر والشعور إلى حب النظام واستقبال الحياة ، وهبوط بهذين إلى ارضاء الأثرة والتبرم بالحياة وارزائها ، فإنما نحن الشعب والشعب نحن ، كما اننا فى نفس الوقت جزء من الانسانية العامة التى يزخر بها بحر هذا الوجود المحيط ، فنحن جد محتاجين إلى ما تحتاج اليه الانسانية المستقيمة ، وجد مفعمين بما هى مفعمة به من عواطف الأنفس وميولها ، ومتجهات الفكر ولفتاته ، وعليه فرأينا فى النظام البشرى شىء عادى كرأينا فى كل ملابسات الحياة .

النظام أو الانتظام أو الاتساق ضرورة لازمة لمجرى البشرية فى سبيلها فى الحياة ، وهو ضرورى للامة الكبيرة والصغيرة فى وقت واحد

كما هو ضرورى للعائلة والمملكة والبلدة والقرية لكى يعيش الأفراد المنظمون عيشة مترابطة الأكناف، متلائمة الجوانب، فيها من الاطمئنان على مصالح الفرد وحقوقه ما يضمن الراحة والسعادة، وفيها من الشعور بأداء الواجبات من جانب الكتلة والفرد أيضاً ما يكفل للناس سيراً هادئا معقولا، يترك للواحد والمجموع مجالا جيدا ليتمم أعماله ويخلص لها ويميل بطبيعته إلى اتقانها، فيسير العالم كالباخرة تمخر فى العباب، كاملة العدة مستوفاة وسائل الأمن والسلامة، أليس كذلك؟ ولهذا فالأديان تأمر بالنظام، وطبيعة البشر توحى وضع النظم والقوانين، ولهذه الغاية تأسست الحكومة القديمة والحديثة، وسرت فى طريقها فنجحت، وهكذا نحن نشعر بإزاء أنفسنا فى جونا الحاضر سواء تحت حماية الحكومة أو تحت رعاية الناموس الدينى أو تحت رقابة الضمير القوى، أو تحت اشراف الاحساس الإنسانى العام، أو فى ظل الخلق الذى نظمه كيان النفس، فتبارك الله أحسن الخالقين، أجل تبارك الله أحسن الخالقين، الآمر على هذه الأفلاك أن تسير منظمة، والموحى إلى هذه الافكار أن تطمح وأن تهدأ وأن تدرك من أنواع العلم والمعرفة ما هى جديرة به وخليقة أن تناله تحت هذا القيد الذهبى المسمى بالنظام.

وإلى هنا هل فرغ حديثنا عن النظام؟ وهل بلغنا المقصد من إزجاء هذا الحديث؟ وهل وقف سياق الخواطر عند هذا الحد؟ لا أظن! أما كيان النظام فهو ترابط أجزاء السير، وأخذ كل جزء منها مكانه بغير مزاحمة أو منافرة أو تشويش، فإن المزاحمة والتنافر فى النظام معناها تعطيل حركة السهولة والنجاح، وتأخير الوصول إلى الغاية رغماً عن الجهود والهمم المبذولة،

إذ هى تصبح فى هذه الحالة ضائعة سبهللا لا ينفع معها علاج إلا الرجوع إلى النظام والانتظام ، ومن هنا ينشأ تأثير النظـــام وفائدته فى الأعمال الاجتماعية والفكرية والخلقية سواء بسواء .

قال مفكر : « إذا كان التنازع فى أمر الحياة من أكبر العوامـــل التى تؤثر على عالمى الحيوان والنبات وتنوع فى مراتب كل منهما بحكم الطبيعة فلا غرو إذا كان الضعيف يبيد أمام قوة القوى فـلا تكون له صورة قائمة . والعالم الإنسانى أشد تأثرا بتلك العوامـــل الطبيعية، إذ يصحبها دائماً عامل الإرادة فيه ، فالنوع القوى من النبات يمتص عصارة الضعيف لحاجة وقتية وبإرادة وقتية لاتكاد تميز النافع من الضار ، بخلاف الانسان فإن إرادته هى العامل القوى والباعث الشديد ، وقلما يفعل الفعـل الا بإرادة تميز له نتائج العمل وتحسنه كل التحسين ، وفى استطاعته أن يوجه كل حركـة يتحركها إلى وجهة يريد منها الخير له خاصة ، ولو رأيناه يفعل الخير لغيره فليس ذلك إلا ليحرز منه أضعاف ما أفاده غيره ، وكما يوجـــد ذلك فى الفرد يوجد فى القبيلة والشعب والأمة والمملكة لضرورة التناصر بالاقرب فالأقرب .

وحيث كانت الإرادة فى الانسان أقوى العوامل المؤثرة عـلى غيره ، فكلما قويت فيه قوى عملها وكانت له أنفع ولمطالبه أجدر ، وتقوية هـــذه الإرادة أمر كسبى يدركه الانسان بتربية ملكته وتدريب فكره على التصرف فى غوامض الامور ، وهـذا هو الداعى لاجتماع العقلاء على أن المعارف والعلوم هى أجل ما يشتغل به صاحب الإرادة، لأنها أعظم رياضة يرتاضها ، وأحسن تمرين يفيده ادراكه ، فالعلوم لا يتعلمها الانسان إلا ليكمل عقلا ، ويتسع فكراً ، ويتعرف فى الامور كما يشاء بدون خطأ ، فلا ريب

بعد ذلك إذا رأينا الأمم التى انتشرت فيها العلوم والمعارف وتربت فيها أفكار أبنائها تسود وتعظم، والحقيقة انها تنازع غيرها البقاء فتفترسها وتحل حياة هذه فى تلك الأمة التى غالبتها »

وقال مفكر آخر : « كل يعمل على قدر ما يعلم ، ونتيجة العامل جارية على طبق غايته ، ومتى كانت الغاية بارة حسنت النتيجة ، وكما لا تكون إلا بالعمال فكذلك لا تقوم الأمة إلا بأفرادها العاملين . فليس ثم قوى مجهولة تعمل على رفع الأمم من وهاد الانحطـــاط ، أو تبلغ بها إلى أوج المعالى ، وإنما هى قوى معلومة محسوسة تنبعث من الافراد ، فتؤثر على الأحوال العمومية وبذلك تظهر الأمة فى مظهر مشتق من مظاهرهم ، وصورة مكنونة من صورهم .

هاتان نبذتان لبعض الكتاب فى الإصلاح الاجتماعى ، وحالة التقدم المدنى ، اولاهما فى المزاحمة فى الأعمال ، والثانية فى المصلحة العامة للأمم ، وكلاهما متداخل فى حقيقة النظام الانسانى العام وترابط أعمال الحياة ، فليست قوة الإرادة فى الانسان بالأمر العبث ، ولكنها شىء له معناه النظامى وتأثيره المرتب ، وهكذا تعيش الامم والافراد ، وهكذا ينبغى أن تعيش ، تزاحم بمنكبها الامم والأفراد الكبيرة ، وتمشى فى داخليتها على نظام وتضامن معقول ومرتب ، لتؤدى واجبهـــا تاماً ، وليسفر عملها عن نجاح وثقة ، وتسعى بقدر جهودها فى أن تعدم طبائع الفساد والكسل والفوضى والآلام .

التعاون العام بين أقطار الجزيرة

صوت الحجاز الحقيقى فى المسألة

هذه العزلة الأدبية فى القطر الحجازى عن الأقطار الأخرى التى يضمها إطار الجزيرة العربية ، ليست بمؤديته إلى بلوغ مركز اجتماعى وتاريخى واقتصادى خليق بالاحترام المطلوب له كقطر حى ممتاز يعتز بجغرافيته ، ويعتز بماضيه وحاضره ، ويعتز قبل هذه الاعتبارات بكرامته الشخصية . هذا بصرف النظر عن المكانة العربية الإسلامية التى تزيده قوة على قوة فى وجود الروابط العديدة مع مختلف شعوب العالم الإسلامى ، أقول إن عزلة الحجاز هذه مع ما هو متمتع به من هذه الاعتبارات ، ليست بمؤديته إلى مكانة فاخرة بين الاقطار العربية ، يساهم بها فى تحقيق فكرة الوحدة العربية التى تحفز لها العرب اليوم وينتشون بخمرتها ، ناسين من جرائها كل آلامهم الماضية ، وإذن فالاقدام الفعلى فى كل مناسبة على التعاون العملى مع هذه الاقطار هو الدواء المفيد لخروج الحجاز وما يجاوره من عزلته الحاضرة ، وأعنى بالتعاون : التعاون الثقافى والسياسى والاقتصادى والادبى ، والسعى للتبادل النافع المعقول مع الأقطار الاخرى المشار اليها فى كل هذه الشئون ، فتبادل التفاهم العام والمصالح بأفرادنا وجماعاتنا وهيئاتنا مع العراق وسوريا واليمن ، ومع مصر أيضاً ، مصر العربية فى لغتها ونزعتها وإحساسها ، هو الذى يوصلنا إلى معنوية أكبر وبروز أسمى . ولست أرمى إلى تبادل كذلك التبادل الذى نشأ بين انكلترا وفرنسا فى مستهل هذا القرن فى التعليم والأطفال ، وسمى بالاتفاق الودادى وشاعت

فيه العاطفة الفرنسية الانكليزية بأسمى أشكالها ، كلا فليس بمنتظر أن يجمح بى الخيال إلى حد بعيد كهذا فى التعاون، فإنه وان كان أطفالنا سيستفيدون من سوريا والعراق مثلا فى التعليم والتربية لو فرض انهم أرسلوا إلى هناك لهذه الغاية ، ولكن ماذا يستفيد أطفال هذين القطرين منا فيما لو أرسلوا إلينا ؟ لا ! ولكنى أشير إلى وجوب هذا التعاون فى مسائل عامة محدودة تسمح بها أوضاع البلادين : بلادنا والبلاد التى نريد التعاون معها ، وقوانينها وطبيعتها فى حدود معقولة تفيد الجانبين ، وعلى بلادنا أن تمهد وتتهيأ لإمكان هذا التعاون ، فتفى بنفسها قبل كل شىء ويلتفت فيها الاهلون — وأغنياؤهم على الأخص — إلى مساعدة التعليم وتشجيع الصحافة والجمعيات والوسائل الصناعية ليس بالمال فحسب ، ولكن معنويا أيضا بالاشتراك العقلى بقدر الامكان فى أية ناحية تروق لهم من هذه النواحى ، ليسود روح التعاون أولا فى القطر نفسه قبل كل شىء ، كما يسود فيه حب التآلف والوفاق والإقدام على أعمال النبل والإنسانية التى تمثل مكارم الأخلاق حقيقة وتربى فى الشعب خلق الاهتمام وتدفع بالشعوب الأخرى إلى احترامنا ومساعدتنا فى مسائل الحياة التى نحتاجها ونشرئب إلى نيلها .

إذا فعل الحجاز ونجد هـذا وما يمت اليه فإنه سيبنى مستقبلا ويخلق حياة جديدة تطمح إلى ترقية الاذهان ، وذيوع الصفات النبيلة ، وحب المشاركة الفردية والاجتماعية فى كل نافع ، وتقريب منابع الثروة والبلهنية والحضارة .

لقد مهد القطر العراقى سبيل هذا التعاون مع الحجاز ونجد ، بأن أرسل بعثة الكشافة العراقية فزارت الحجاز وقامت فيه بجولة صغيرة لم يسمح

لها وقتها بتوسيعها ، وخلد الحجاز ذكرى هذه الزيارة فى مجلد أدبى ستبرزه المطابع قريبا ، وأرسل القطر السورى بعثة أخرى شأنها غير شأن تلك ، ولكن الروح واحد هو روح حب تبادل التعاون الحقيق بين هذه البلاد وشقيقاتها العربية المندمجة معها فى اطار واحد ، وفتح طريق أدبى اجتماعى سياسى عربى قبل أن يكون طريقا قاصرا على سير السيارات فقط على خط سوريا — قريات الملح — تبوك — المدينة — جدة — مكة ، طريق روحى سيتحول مظهره هذا المادى البسيط إلى قوة أدبية معقولة تشد من أزر الرابطة العربية بيننا وبين سوريا لتبادل الاقتصاديات وغيرها ، وقد قابل الحجاز بحكومته وشعبه هذه الخطوة بما تستحق من المقابلة ، وتلقاها الشبان المتعلمون بحفاء ظهر فى مظهر علمى ، وعبروا فيه عن أمانيهم الكبرى وأمانى العرب وبلاد العرب العظيمة .

هـــذه الحركات كلها هى فى الحقيقة حركات تاريخية معتبرة كلبنات فى صرح بناء تعاون عربى عام ، وإذا ما تراصت هذه اللبنات لبنة فوق أخرى فى مناسبات عدة وفى أوقات متقاربة وفكر الساسة والزعماء والمفكرون هنا وهناك وهنالك فى خلق أسباب التعاون النافـــع بين أقطار الجزيرة العربية فإن هذا الصرح سيصبح مشيدا مشيدا ، وستنال البـــلاد التى تهتم للتعاون فوائده المحققة فى أسرع زمن .

ولا نريد التعرض هنا لوضع المثل أو الخطط التفصيلية لإيجاد هـــذا التعاون الفعلى موسعا ومجديا ، فإن هـــذا علاوة على أنه سبق أهوج للحوادث فإنه شأن ولاة الأمور وهم به أدرى ، وله أفطن ، وعليه أحرص ، وما شأننا غير البحث والعرض بعد التفكير المستقيم المخلص خدمة لبلادنا وحكومتنا وللعرب والشرق .

ميدان الشباب

« الشباب » !

هذا هو اسم هذه المجموعة ، او الرسالة أو الصحيفة ، أو ما شئت فسمها ، فإنما هى كل ذلك فى صميمه وحقيقته ، فهى وعاء لحكمة الأفكار الناشئة المتطلعة لعين الأمل الى ما فى هذه الحياة ، من متع فكرية وغايات اجتماعية ، ومذاهب أدبية ، وثقافة علمية ، حسب ما يتطلبه هذا الوسط وحسب ما يوحى به هذا الوسط ايضا ، وحسب ما يرى هذا الشباب الحى من واجب يقتضيه منه مجد البلاد ومجد الفكر ، وهو حر كل الحرية فيما يرى ، اذن هذا ميدان تتسابق فيه جياد الأقلام يهمزها عزم الشباب ، ويحدوها حادى الأمل لتقطع اشواطا وأشواطا إن تعثرت فى الأول منها فمضمون لها ثبات الخطى فى الاواسط والأخر ، بحكم المراس والتمرين وبحكم طبيعة التجربة ، وان الحياة بأجمعها أو بحذافيرها لهى سلسلة متواصلة الحلقات من التجارب والتمرن والمراس .

إذن فليحيى الشباب !

نعم ليحيى الشباب وليمض وليتقدم وليبن ، وليعلم أنه ناجح ناجح ، ومنتصر ومنتصر برغم كل شىء ! ، فلن يقف الفشل فى طريقه ، ولن تعرف الهزيمة سبيلها الى مجهوداته ، وسوف يخشى الفشل والهزيمة نفساهما على نفسيهما من وقدة هذا الشباب العزوم الناجح المنتصر .

نحن الشباب العاقل ! نحن الشباب الفائز ! نحن الشباب المحق ! هذه الألفاظ وأمثالها هى الوحى السماوى الملهم الذى يجب ان يعتنقه الشبان الشادون فى الأدب ، وأن يؤمنوا به ايمانهم بالله ، كما اعتنقناه نحن الذين جاوزنا مرحلة الشدو الأولى فى حياة الفكر والأدب الى ثقافة ضمنت لنا الاحترام ولا زلنا نعتنقه ونؤمن به حتى نخلع عن انفسنا ربقة الشباب ، والذى كان يعتنقه بالامس هؤلاء الكهول المحنكون وغير المحنكين ، فهو إذن حق طبيعى واجب لكل شاب .

هذا ميدان الشباب العاقل فلتتسابق فيه جياده ، كما تأمرها الحياة ، ولتحترم فى سيرها كل ما فى الطريق من آثار الماضى ، ولتكن بانية فى سلوكها إلى الغايات ، لاهادمة ، فإن البناء الممرد يهدم لطبيعة البناء المشوس المتقاصر ، ولا يلبث أن يلاشيه أو يتركه فى الطريق لا قيمة له ولا حفل به .

هذا ميدان الشباب ، فليمش فيه بحكمة المخلص ، وتثبت البصر ، ورزانة الأديب العامل ، واستقامة الوطنى المكين ، وليحصر جهوده فى النافع الجميل المنتج بقدر مستطاعه ، ويستنكب عثرات المسير حسب مايخوله إدراكه .

هذا ميدان الشباب ، فليكن له فيه مبدأ صحيح ، ونظر مستقيم ، وحب لكل ما يربطه بحياته الحاضرة ، ودفاع عن كيانه ودينه ولغته وأمته وحكومته ، ولتحرسه عناية الله .

أدب الافلاس

فقر الدم فى مجموعة الانسان العصبية فى علم الصحة ، يشبهه فقر الفكر فى أدمغة الكاتبين فى علم الأدب . فكأين من كاتب يمثل فى عالم التحرير دور صفاف الحروف فحسب فى عالم الطباعة ، يهرك بادىء ذى بدء بكلمات طلية منتقاة من « نجعة الرائد » أو « أدب الكاتب » أو « البيان والتبيين » وقد أكون أبعدت النجعة واكبرت قليلا من شأن هؤلاء المضعفين ، وقد يكونون متهمين بالاطلاع على هذه الكتب ، وانما يكون من أجل مواردهم « جواهر الادب » وما اليه من كتاب مطموس لا يحمل الا صورة مكررة غثة من آداب مضت عفت عليها الحياة كما عفت منتجات القرون الحديثة على كثير من مخلفات القرون الماضية فيغيرون اغارة الغزاة ملتهمين ما يقع بين ايديهم سلبا باردا ثم يحقنون به رءوسا خالية من الفكر ، وعندما يتشكل ذلك السيال رديئا كان أوجيدا بشكل إنائه الجديد يخرجونه مرة اخرى بصورة غير صورته . وهل فى الناس بعد من ناقدين فيحللون ذلك الأدب المعاد ، او هل فيهم من باحثين عما تخفيه تلك البضائع المزجاة ، فيصرفون ما فيها من عناصر الكساد ؟ كلا إن الناس بله لا يفهمون ، وذمة أبولون اوسع مما فى مقدور اولئك الادباء المفاسين ، وجبل الأولمب لا يضن بالخلود على كل غبى يحسن سرقة الافكار وتصفيف الجمل وانتقاء الكلمات فما عليه سوى الإغارة على ما تنتج العقول الفياضة وانتحاله ثم ابرازه للناس بلون جديد .

إن الغباء مصيبة مركبة فيما أرى، فبينا يتلكأ الغبي فى جحيمه الذهبي مستسلما لنتائج فعل الطبيعة معه، تره يبصر أمامه تلك الجيوش المزدحمة من الآدميين أغبياء جهالا لا يملكون تصاريف الفهوم، فما يتهجم عليه من عمل مخجل أو تصرف قوامه الضعف فهو مدفون لا يرى تحت أطباق كثيفة من غباء الآخرين !!

أولئك هم المفلسون فى عالم الأدب، أدباء أقفرت رءوسهم من أفكار الحياة القوية السيارة، فأخذوا يجترون كما تجتر السائمة ثم هم يحسبون فى طبقة المفكرين أو الفنانين وما اغبنها صفقة تخسرها سمعة الحياة الانسانية إن يسمى هذا القطيع المجتر كتابا أو مفكرين، وهل لم يخطر لك وقتا أيها القارىء الكريم ان الثرثرة فى الكتابة نوع من الافلاس فى الفكر والشعور؟ ولم لا؟ وهى أسلوب مرض يجنح له المنشىء الفقير الدماغ وقد أعوزته الأفكار فملأ صفحات من الجمل تتكون من اسفاف بارد إلى نظريات عامية لا يضيق بمثلها فكر الحلاق والجزار وسائق الاوتوموبيل وماسح الأحذية. تبدو لك فى مظهر جامد ولكن لهذا المظهر بما فيه من جمود لألاؤه الخاص فى أسلوب الادب « المفرح » ومكانته فى عالم المسرات الأدبية، لا أقول من جانب الهزء به فقط، ولكنه يمت أحيانا إلى السهولة بنسب وهو فى صورته الاولى أشبه بالارواح الراقصة فى مسود الليل، أو على مسرح التمثيل، إنها مضحكة ومخيفة معا، ولكن يرتفع الخوف منها عند فحصها بدقة، وعندما نعلم أنها خيالات جوفاء فيبقى عنصر الإضحاك لا يلاشيه الفحص. ونحن فى طورنا الجديد من الأدب الحى لا نحتاج كثيرا إلى رقص الاخيلة فى الظلام وإنما الحاجة إلى الجد بأوسع معانيه وإلى العبوسة الفلسفية

فى تصفية ذهب الحقائق واستخراجها من مناجمها ، ولا تقوم هذه التصفية والاستخراج إلا على قلم داه قدير ، يتساب فى هدوء واتزان فى شرح الفكرة وتحليلها بخلق رصين ، وتشريح فلسفى واضح متسق يتغلغل فى أعماق الموضوع فنيا ، فإذا هو صورة هندسية للموضوع رائعة الجمال ، وهى فى روعتها لا تنتسب لشىء أساسى سوى الغبط والاتقان .

عامية الحجاز ووثوق صلتها بالفصحى

كنت منذ أيام وصديق الفاضل الجليل « طلعت وفا » نطالع مقالا فى المجلد الرابع والسبعين لمجلة المقتطف التى أحتفظ بعدة مجلدات منها فى مكتبى كأثمن مراجعى العلمية ، وكان موضوع المقال حديثا لليدى « درمن هاى » المرأة الانكليزية المقدامة التى هى أولى عابرات المحيط الاتلانتيكى طيرانا من أوربا إلى أمريكا ، والمرأة الوحيدة — أو الوحدة كما يقول المقتطف — بين ركاب المنطاد « غراف زبلين » الالمانى تصف فيه رحلتها من الوجهة النسائية (١) فاستلفت نظرنا مادعا إلى البحث فى معاجم اللغة ، الغربية ، وبينا أنا أقلب صفحات المنجد ، للأب موسى شيخو اليسوعى ، إذ وقعت عيناى عرضا على كلمة « كيان » وهى كلمة ليس لها علاقة بموضوعنا فى البحث ولكن بحثنا فى المنجد عما يتعلق بمقال درمندهاى كان قد تم ، وكانت كلمت « كيان » هذه العارضة أوحت لى فكرة جديدة عن اللغة العامية فى بلاد الحجاز وصلتها بالعربية الفصحى ، فهذه اللفظة يستعملها العامة عندنا بمعنى « مفلس » فوجدت أنها فى التعبير تؤدى معنى « فاسد » وليس الافلاس والفساد فى الحقيقة إلا من عنصر واحد ، هى النكسة والتدهور ، فبين اللفظتين عموم وخصوص يسوغ استعمال إحداهما فى مكان الاخرى ، أو هنا على الاقل رابطة الاستعارة السائغة تحكم الصلة بينهما ، ولم أكد أقع على هذا الاكتشاف البسيط حتى كدت لا أتمالك نفسى من المسرة ، وأغرانى هذا الاكتشاف بالمضى فى هذا السبيل للعثور على كلمة أخرى

---

(١) راجع باب شئون المرأة وتدبير المنزل فى مقتطف فبراير سنة ١٩٢٩ مجلد ٧٤ ص ٢١٢

تدل على استيثاق الصلة بين لغتنا العامية الحجازية ولغتنا العربية الصحيحة ، مما عساه أن يقرب المسافة بينهما وان يدل فى نفس الوقت على أن اللهجة العامية الحجازية لا يبعد أن تكون أصح لهجات الاقطار العربية العامية الاخرى كلهجات مصر والعراق وسوريا واليمن العامية مثلا ، وعسى أن تكون اللهجة الحجازية هى زعيمة هاته اللهجات كما كانت لهجة قريش فى الماضى زعيمة لهجات العرب قاطبة ، وان تكون هـذه الزعامة المجهولة دليلة زعامة صريحة يتمخض عنها المستقبل القريب لا تقتصر فيه على اللغة فحسب ولكنها تتعداها إلى الثقافة العامة والحضارة والسياسة ، ومن ثم يكون هذا الأمل البارق دليلا صارخا على خلود اللهجة الحجازية فيما بعد ، ومن يدرى لعلها تكون بعد تعديل بسيط لهجة الكتابة العربية كما حدث ذلك فى لغات أوربا الحاضرة التى كانت قبل قرنين لهجات عامية محلية يوم كانت اللاتينيـة واليونانية هما اللغتان الرسميتان للكتابة علمية كانت أو أدبية ، فما هى إلا ان تجرأ أدباء الانكليز والفرنسيين والالمان فنظموا الشعر بالانكليزية والافرنسية والالمانية — وكانت لهجات عامية حينذاك — وكتبوا بها المواضيع والابحاث العلمية والأدبية وتداولوا ذلك الامر وأوغلوا فى الاقدام عليه حتى أصبحت هذه اللغات لغات بليغة راقية تؤلف بها المؤلفات الضاربة فى كل ميدان ، وها نحن أولاء نشاهدها اليوم بأعيننا أرقى لغات الكتابة والتأليف فى العالم .

هكذا تترقى اللغات واللهجات ، وهكذا تنهض بنهوض أهلها الذين يلبسونها حياة فزازة متدفقة ، وهكذا يتحقق ناموس التحول والتطور ، ويتم قانون النشوء والارتقاء .

فإنى أرى أن اللغة العربية للمستقبل لن تعود القهقرى إلى عصور امرىء القيس والنابغة وعبد الحميد ، ابن المقفع والجاحظ وأضرابهم ، ولكنها ستتلقح كثيرا وبصورة هائلة بلقاح من هذه اللهجات العامية الراكزة .

وإذا كانت احدى هذه اللهجات العامية — كالعامية الحجازية — هى نفسها ملقحة من العربية الصحيحة ، فيا لربح الصفقة حيث تكون المسافة قريبة جدا وعملية التلقيح الطبيعية التى ستجرى بنفسها سهلة المأخذ ، وأية لهجة من هذه اللهجات يأنس فيها الكتاب روح الشبه والقرب من العربية الصحيحة فإنها هى التى ستسود غيرها من لهجات العرب .

هذا حق صريح ، والحق أقول انى لم أكد أتصوره وأتصور معه هذه العظمة التى سيحققها المستقبل لعامية الحجاز حتى انتشيت بخمرة سرت نشوتها فى مفاصلى .

وكاشفت صديق طلعت بهذا الأمر ، وأنبأته عن عزمى على التنقيب والقيد ، فشجعنى هو بدوره وصدق على ما قلته له وأنبأنى أن اللهجة الحجازية تضم بين مفرداتها كثيرا من الكلمات الصحيحة ، وكان هذا إحساسى من زمن ، ولكنى لم أنهض للكتابة إلا اليوم على أثر ذلك الاكتشاف العرضى ، الذى أعقبه اكتشاف آخر أكبر منه ، عرفت منه أن العامية الحجازية تحمل — بحق — جانبا كبيرا من الالفاظ الصحيحة ، وهأنذا أسرد على القراء ما حققته منها كنموذج على صحة هذا الإدعاء :

١ — « الخربشة » لفظة يستعملها الحجازيون بمعنى الخدش : خدش الإنسان جلد آخر بأظافره وأحدث سجحات فيه ، أو خدش الهر إنسانا ،

ويشتقون منها فعـــل « خربش » بهذ المعنى ، وقد جاء فى اللغة العربية أن الخربشة هى إفساد الكتاب أو العمل ، فالمؤدى واحد بلا ريب وان خدش الجلد بالأظافر هو افساد له وتشويه كإفساد الكتاب أو العمل .

٢ ـ « خش ـ يخش » عامية حجازية بمعنى دخـــل يدخل ، وهى بهذا المعنى والاستعمال نفسه فى العربية سواء بسواء .

٣ ـ « سيب ـ يسيب » الشىء يستعمل بمعنى تركه وأهمله ، وهى كـذلك فى الفصيح سواء بسواء .

٤ ـ « الشاطر » عندهم بمعنى الماهر القدير ، والناجح فى عمله ، ومصدره « الشطارة » وفعله تشطر ، وقـــد صح فى اللغة أن معنى الشاطر : المتصف بالدهاء ، أو بالخبث ، ولـكن فعله « شطر يشطر » من باب حسن وكرم ، أما مصدره فهى الشطارة عينا بعين كما فى اللهجة الحجازية .

٥ ـ « عجر فلان فلانا يعجره عجرا » بمعنى ضربه ـ حجازية صرفة ، وفى اللغة الفصحى ، عجر فلان فلانا بالعصا ، يعجره عجرا : ضربه فانتفخ موضع الضرب وعجر عنقه بمعـــنى ثناها ، فالعجر الحجـازى إذن هـــو العجر العربى الصحيح ، ولـكن اللهجة الحجازية تتوسع فى عدم تقيده بثنى العنق أو لزوم انتفاخ موضع الضرب ، ولـكنها تضمن الـكلمة معنى الغلبة والقهر ـ فى الضرب طبعا .

٦ ـ فزر الباب أو الدولاب أو الصندوق ، يفزره ، فزرا » بمعنى فصل أحد مصرعيه أو غطاءه عن المصراع الآخر ، أو عن الجانب غير الغطائى منه ، والـكلمة فى العربية بهذا التصريف تماما من ضرب بمعنى فصل الشىء عن الشىء وبمعنى كسره وفسخه .

٧ ـ « قرِف فلان يقرف من باب علم ، بمعنى غثيت نفسه أو اشمأزت والقرف مصدر قرف ويأتى بمعنى التقريف ، من قرف فلان فلانا « مشددة » بمعنى أغثى له نفسه بذكر حديث مغث أو وصف طعام ردىء مثلا ، وفى العربية الصحيحة تأتى قرف فلان فلانا بكذا بمعنى عابه أو اتهمه به والمعنيان جد متقاربين أو متماثلين ، وتأتى أقرف بمعنى ذكر بالسوء .

٨ ـ « لحيان » و « مُكحين » بمعنى مفلس أو فقير ، ولا تصريف لها فى اللهجة العامية فلا يشتق منها فعل ، وهى فى اللغة بمعنى فاسد من لحن يلحن من باب ضرب بمعنى فسد .

٩ ـ « المركن » اناء من فخار أو من خشب يستعمل لتزرع فيه بعض الزهور البيتية ، ويستعمل فى نقل الطين أيضا لبناء الدور ، وكان يستعمل منذ ربع قرن فى غسل الملابس ، هذا استعماله العامى الحجازى وهو فى الفصيح اجانة « أى إناء » تغسل فيها الملابس وغيرها .

١٠ ـ « ندر » تستعمل العامة هذه الكلمة بمعنى خرج الرجل ، وهم يقصدون الخروج العام ، وهى فى العربية بمعنى الخروج أيضا ، ولكنه خروج الرجل عن قومه ، وبمعنى القلة والندور ، فعلى المعنى الأول ستجد الاستعمال العامى والصحيح وليس من فارق بينهما سوى العموم والخصوص وهو سائغ .

١١ ـ « وشوش » من ضرب دحرج بمعنى همس الكلام فى العامى والفصيح سواء بسواء .

١٢ ـ « وى » كلمة تعجب يستعملها الناس خاصة بصورة اطرادية شائعة جدا ، وهى فى الفصحى اسم فعل مضارع للمتكلم بمعنى أتعجب .

هذه نماذج من ألفاظ تستعمل فى اللهجة العامية الحجازية وتندمج فيها اندماجا طبيعيا بلا كلفة ، لأنها من مفرداتها الكثيرة التى كم فيها من أمثال هذه الألفاظ الصحيحة التى لا يسعنا أن نستقصيها ، وانما حسبنا التمثيل هنا لندل به على مكانة هذه اللهجة من القرب والاتصال بالعربية الفصحى ، فعسى أن يفكر الكتاب و الادباء فى أسباب ونتائج هذا الاتصال الوثيق وأن يعيروه من التفكير قسطا يتجلى فى عدة مظاهر كالاكثار من استعمال هذه الكلمات فى الكتابة تمهيداً لرواج اللهجة الحجازية وتقريبها من اللغة الصحيحة أو تقريب هذه منها ، وكالبحث والاستقراء عن أمثال هذه الالفاظ فى اللهجة العامية وضبطها وجمعها فى كتاب ، وكالبحث والكتابة مرة بعد مرة فى هذا الموضوع الجليل فإن له خطره العلمى والاجتماعى كما أسلفنا الكلام على ذلك .

وفى هذا العمل ولا ريب ضرب من الوطنية الصحيحة التى تؤدى إلى رفع مستوى القطر العزيز .

الحاق —

كتب هذا الفصل قبل بضع عشرة سنة من تاريخ طبعه فى هذا الكتاب وها نحن الآن نرى صديقنا الفاضل الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار يواصل بحثه فى هذه الناحية نفسها فيخرج بمحصول كبير من هذه الالفاظ والتعابير ولعله يحاول جمعها فى كتاب لا يخدم به اللغة العربية وحدها ، ولكنه يخدم به تاريخ هذه البلاد اللغوى .

فى السبيل (١)

الآن وقد أذن حاجب الزمن أن تظهر فى هذه البلاد صحيفة تعبر عن مقاصد أبنائها ووجهة تفكيرهم وشدة تعلقهم بحياة الأعمال والمشاريع النافعة ، وهى الناحية البارزة فى حياة الناس فيما وراء هذا العالم الفطرى فإننا نتقدم عاملين بعون الله ، مغتبطين بمجال العمل ، لاهجين فى هذا الموضوع بثنائنا على صاحب الجلالة الذى شجع مشروع الجريدة ماديا وأدبيا ، غير ناسين همة من عضدوها بإقبال له سعته ونفاذه، وقد كان عزمنا نشر أسماء حضراتهم قياما بالواجب،غير أنهم أبوا علينا ذلك وسوف لانهمل الفرصة عند سنوحها فى تحقيق هذه العزيمة حرصاً منا على واجب كبير مستيقنين أن ليس هذا العمل فقط هو الذى يحفز كل غيور من النشيطين ومحبى الاصلاح إلى ابرازه فى حيز الوجود ، وإنما الغاية من وراء ذلك هى بعث مناحى النفس العاملة فى إيقاظ الصناعة وأبواب العمل الحر فى هذه البلاد المقدسة ، وغير قليل أن تشتد هذه الروح وتنتشر فى الطبقات، وغير نزر أن نساوق قانون الله فى خليقته ، فنفكر فيما يعود علينا وعلى بلادنا بالنفع المقصود فى هدوء ومثابرة وحسن قصد ، ساعين إلى ما يمكن أن يعلى شأنا ويبنى مركزا عمليا ، ويعود بقسط وافر من النفوذ الأدبى وسمو المنزلة بعد أن كانت سحابة سوداء من الصد والحرمان تجثم على صدر أمثال هذه المشاريع فى الزمن السابق ، فأصبحنا فى عهد سمح لا يضن بمثل ذلك وقد فعل !

---

(١) كتبت افتتاحية لجريدة صوت الحجاز ، العدد الثالث

وكما لو تم بقاء البلاد على خمود نزعتها نحو العمل والاهتمام بالمعرفة وترويج الآداب وبعث حضارة الأذهان بقدر المستطاع تسوء حالتها إلى الأبد، وتنفد منها مادة الحيـــاة والإحساس بالواجب، كذلك تنتظر من تقدمها إلى نشدان الكمال نتيجة طيبة هى جريان دم الأمل فى أعصابها وتساميها إلى حيوية مرجوة ترهف إحساسها بواجبها وتقوى عزمهـــا فى استكشاف الصالح من سبل العمل الشريف.

ولن يعدم عامل هذه غايته أن يجد طريق النجاح معبدة مفتوحة أبوابها فقديما قال شاعر:

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه ... وليس عليه أن يساعده الدهر

وحرى بالانسان أن يتعلم الثبات وشق الطرق ممن كان قبله من أساطين الرجال الذين قدموا واجبهم الساطع فى نواحى الحياة، إما عن طريق الفكر أو العمل أو أية طريق كانت، وفى أية دائرة أتيح للعامل الصادق أن يجوس خلالها حيث يكون المدار فيها على قوة الانتاج وجمال الخطة وجمال المقصود، فكلنا يشعر ويعتقد أن القصد الجليل والغاية الجميلة والناتج القوى فى عالم الأعمال أشياء أصبحت اليوم ضرورية ومقدسة. فكم هو هائل ومحترم أن يحس المرء بوضوح زائد فرق ما بين الجمال والقبح، وما بين القوة والضعف، وما بين الجلال والحقارة، ثم بعد أن تبدو أمام عينه هذه الروعة الممتعة من المقارنة والفهم يختار لنفسه - إذا وفقـــه الله - أصلح السبيل وأقومها بقدر اجتهاده، ولن يفشل ذو جهد مستقيم.

هكذا أوحت إلى الناس سنن الحياة .

وحول هذه الفلسفة دارت بتعاليم المصلحين .

وفى مثل هذه الحكمة يقول القرآن الكريم : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » و« إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » « وعلى الله قصد السبيل» « لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجاً » وما إلى هذه البينات الناصعة ليس فى بلاغة تعبيرها فقط، ولكنها فى عالم السير الحيوى قبل ذاك وبعد ذاك .

وبعد فهذه سبيل طرقها العابرون قبلنا من حملة الأقلام وقساطرة العلم والأدب وهنادسة الفكر الرحيب والعاملين على إيقاظ الشعور وصقله عربا كانوا أم أعجاما من كل مزود فى الحياة بأقوى أسلحة الحياة ، وكل مسوم مزيال يملك عليه لبه حبه الفائدة والرفعة لبنى قومه ، فإن نحن غامرنا أيها القارئون فى هذا الشرف المروم ، وقنعنا ـ والتعبير للمتنبى ـ بما دون النجوم ، فإنما هى همة يدعمها الايمان بالمبدأ القويم ، وعزيمة يمليها الإحساس بكرامة النفس المطمئنة إلى قانون الدنيا الحكيم .

ولكن المتنبى يأبى على المغامر أن يقنع بما دون النجوم وطبيعة النفس الانسانية تهوى السمو إلى مافوق مستوى الطاقة البشرية ، وتأبى طبيعة الكون ومسير الظروف ذلك الطموح والبروز إلا لأفراد كان خلق المغامرة أول مواد الغذاء عندهم، فهم فى معزل عن الحياة إذا صدفوا عن طريقه وفى ذبول عتيد لو غادرهم قطعة من الزمن .

وفذلكة الأمر عندنا فى هـــذا الموضوع أن الحياة ترغم الأحياء على الحركة والعمل، والسير والتقدم وإننا لفى السبيل، وإننا إن شاء الله لمتقدمون.

اعملوا للبلاد

أيها الرؤساء !

اعملوا لبلادكم كما تعمل كل الأمم فى داخل بلادها وخارجها أعمالا مختلفة الألوان ولكنها متحدة الغاية. فالعمل السياسى، والعمل الصناعى، والعمل العلمى والعمل الأدبى، كلها فى الأمم الشاعرة بنفسياتها خطوط مستقيمة تؤدى إلى نقطة معينة قريبة الوصول، فالعالم هناك لا يقول عن رجال السياسة إنهم من أهل الدنيا ونحن من ذوى الآخرة، والسياسى لا يقول عن علماء الدين إنهم خلقوا للمساجد والكراسى فلا يصلحون لأن يفكروا فى مصالح الأمة، والأديب كاتبا كان أو شاعرا لا يسمح للسياسى أن يندفع فى قيادة الأمة اندفاعا فردياً فوضوى الخطة قد يكون سيء الإنتاج، ولا يدع العالم يتمتع بهجعته اللذيذة فى ثنايا الفرش الوثير، فرش الاستنامة الروحية واللهو عن يقظة الحياة العامة، ولكنه يصلى الجانبين نارا حامية من النقد تبركن الأفراد من كل طبقات الأمة فيحسون أنهم خلقوا ليفهموا حياة محيطهم من شتى جوانبها فهما دقيقاً حرا يرفع عن الأعين المثقلة بالنعاس كثافة الأجفان المطبقة، ويهز الأعضاء الرئيسية الفاترة للقيام بحركة الحياة والعمل قياما إن فقدته الأمة فى مجموعها كان نصيبها الصفع متواليا على الأقفاء من كل ذى مرة يحس ويعقل ويدرى أن القصور والإهمال إنما خلقا للصبيان اللاعبين لا للرجال العاملين. ستقولون وماذا نعمل ؟ وهل نحن مهملون

أومقصرون ، والجو صعب سهل بيد أنى لا أريد الإفصاح بصراحة عن نصفه الأخير أما نصفه الأول فأستطيع حصره بالجملة التالية :

١ ـ اعملوا لتقوية الكيان العربى بين الحجاز ونجد ، فما من بد اليوم للأمتين أن تكونا أمة واحدة متنبهة تحس فى طبعها أنها مزيج قوى فعال السريان وجهته واحدة طالما سياسته واحدة وزعيمه واحد قوى الإرادة متين الخلق رصين العقيدة ، بهذه الوحدة يسحق فى سبيلها مطامع المفككين فهل من المعقول أن يشتغل وحده ذلك الفرد المؤمن بمبدئه من حيث لا يجد من رؤساء الأمة وذوى الشخصيات البارزة فى مجموعها من يضافره على هذا الرأى أو من يؤمن بهذه العقيدة إيمانا متينا يستشفه الناظر من وراء الأعمال المحكمة ، ليس هذا معقولا أيها الرؤساء الحجازيون الكرام لكن المعقول الذى يضمن لكم قبل كل أحد مراكز سامية فى الحياة، مراكز صحيحة تبنى على الأكباد والقلوب هو اعتناق هذا المبدأ ، مبدأ توحيد أنواع العنصر العربى ، ثم صلوا إلى ذلك من أى طريق أردتم من طريق الدين ، من طريق السياسة، من طريق التجارة ، من طريق التعليم، من طريق الصحافة ، من طريق المصالح ، من طريق الآداب فستصلون لا بد ...

٢ ـ اعرفوا قيمة الوطنى كما تعرفها الأمم ، وليخدم الكبير الصغير حتى يعرف الصغير مكانة الكبير ، وأشعروا قلوبكم ضرورة الارتباط العائلى الوثيق بين أفراد الوطن الواحد ، وضموا قلبا إلى قلب لتضم إلى القلوب قلوب ثم تكون القلوب قلبا واحدا ينبض بعقيدة واحدة هى عقيدة النفع العام والمصلحة المشتركة ، وبهذا ستبنون بناء شامخا فى الوطنية لا يعجزكم

بعدُ أن تضخموه ، وما هو بمستحيل على عزم الرجال الذين يفهمون الحياة ويحبون العمل المنتج فى ظل العطف الشامل والوحدة الصحيحة ، والتفاهم بين الأفراد والحرية للمجموع وضمان الحقوق للجميع .

٣ ـ وجهوا النظر الأقصى إلى التعليم ، وأوجدوا تعليما منظما ساميا فى الحجاز يضمن سد حاجات البلاد بكفاءة أبنائها ، فالأمة لم تبق إلى الآن فى جحيمها الذهنى الا لفوضى التعليم أو فقدانه من البلاد ، وليس بالإسراف أن تصرف آلاف الجنيهات فى هـــذا السبيل لتصحيح الفهوم والقضاء على ما يهدد الناشئة من خطر التعليم المقصر .

الجامعة الاسلامية

حافزنا إلى هذا البحث هو واجبنا نحو الجامعة الاسلامية الكبرى ، والرابطة التى ينضوى تحت لوائها من سماهم الله بالمسلمين واختار لهم الانحياز إلى هذه الملة السمحاء والحنيفية البيضاء .

مسلمو العالم اليوم منحصرون فى الجانب الغربى من قارة آسيا ، والجانب الشمالى من قارة أفريقيا تقريبا ، ففى الأول عرب المشرق : سكان الجزيرة العربية « الحجاز ونجد وعسير واليمن وسوريا والعراق وما بين النهرين » وأتراك الأناضول ، والبخاريون والتركستان ، وفى الثانى عرب المغرب : سكان تونس والجزائر ومراكش ، والمصريون والسودانيون والبرابرة ، ومن غير هذين الجانبين مسلمو الهند وجاوى والصين وتركية أوربا ويتراوح عدد هذه الكتلة الإسلامية المباركة ما بين الثلثمائة والمائتين والخمسين مليونا كلهم بلسان واحد ينطقون كلمة الشهادتين ويولون وجوههم شطر الكعبة المقدسة خمس مرات ما بين كل مشرق فجر ومرقب نجم ، ويؤمون البيت الحرام خاشعين فى موسم خاص تتاح لهم فيه فرصة الحج إلى ذلك البيت العتيق فيجتمعون فى موقف يخفض فيه الطرف ويخلع له النعل ويحسر فيه عن الرأس وتتناسى فيه الفروق الجنسية والاجتماعية خضوعا لأمر الخالق العظيم ، واتباعا لتعاليم الرسول الكريم ، ويدين هذا الجمع الغفير بعقيدة واحدة هى توحيد الله تعالى ، الإله المبدع الاعظم الذى تعنو له الجباه وترتفع إليه العقول رهبا ورغبا فى غير ما دنس يمسخ طهارة

القلب أو ريبة تأكل من راسخ الإيمان العميق ، أولئك هم المسلمون القائمون بواجبات الشريعة السمحاء التى سطع ضياؤها قبل الف وثلثمائة وستين سنة على يد ذلك المبعوث محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه وسلم فى بقعة من الارض ماتزال تشعر بقداستها وتقصدها شتى العناصر معطية إياها من طواعية القلوب واستيفاز الأنفس ، ما لا ينال اضأل قسط منه بسوى ذلك الحافز الالهى الشائع فى كل نفس تعتنق الإسلام ، والسائل على كل لسان يردد كلمة الإقرار ، والماثل فى كل جبهة تسجد للخالق جلت قدرته وتعالت حكمته أولئك هم المسلمون المتحدون فى المنزع والهوية لا تعبث بعقيدتهم الاهواء ولا تجرؤ على النيل من متانتها ورسوخها وساوس التبشير برغم ما يبذل دعاته من جهود عنيفة منظمة يشد ازرها المال المكدس المبثوث فى هذه السبيل بلا حساب .

وليس السر فى هذا الاتحاد وذلك الثبات سوى تلك البذرة الإسلامية المعنوية التى بذرتها يد الله فى مختلف هاتيك القلوب وتعهدتها بالانماء والارواء عن طريق الكتاب المقدس والحديث المحمدى المملوء بخير الامم ومباعث نهضاتها الحقيقية، القائمة على أساس مكين من حياة الوجدان والفكر مما لو تعمق فيه الدارسون ـ وقد فعلوا ـ لطأطأوا له الرءوس عرفانا بصفاء جوهره ، وسمو معدنه ، وبعد صرخته فى أفق الفضيلة الثابتة والحق الصريح.

هذا هو جو الإسلام الذى ما يستنشق فيه بشرى نسمة من نسمات السعادة والمعرفة وراحة الضمير إلا وأسرع إلى الإيمان بعظمته وشاع فى جوانب نفسه شعور صادق بما لتعاليم الإسلام من ميزات متفوقة . وعلى هذا الاساس ، وفى هذا الأفق الفسيح تقوم وحدة المسلمين وارتباطهم الفكرى

والروحى ويتضح تماما معنى الوحدة الإسلامية التى نقصد إليها فى بحثنا محددين ذلك البحث بهذا الحد الآتى :

- الوحدة الروحية ، والوحدة السياسية.

وليس هذا الحد إلا لأن المفكرين فى الشرق وأهمهم من المسلمين يرقبون الامم الإسلامية بمرقب صادق النظرة فيرون فيهم أحسن اداة تعمل للجامعة العامة ، فهم يحللون قبل البحث ماهية الوحدة التى يجب أن يتصورها كل أفراد المسلمين ، فمن هؤلاء المفكرين من يرى أن الاتحاد بين الامم الإسلامية إنما يكون روحيا وخلقيا فحسب فى الوقت الحاضر، إذ ليس فى مستطاع تلك الامم اليوم أن تكون وحدة سياسية اجتماعية لتباين أنظمة الحكم فى مختلف بلدان العالم الإسلامى ، ومنهم من يرى ضرورة أن يتناسى كل عنصر من العناصر الإسلامية عصبية الجنسية وتقاليد المحيط السياسية فى سبيل تكوين وحدة مادية اجتماعية عامة تبذل فى نيلها كل أمة ما فى مقدورها من التضحيات البريئة الهادئة ، وتعمل بحق لإيجاد الكتلة السياسية الكبرى المتماسكة تماسكا واضحا للعيان .

أما ما هو جوهر الوحدة الإسلامية الروحية فجوابه فى المثل الأعلى الذى يصوره الدين الإسلامى فى شخص المسلم الكامل الإسلام فى آدابه ومعاملاته المنطبقة انطباقا دقيقا صحيحا على الأصول المراعاة فى واجبات المسلمين بعضهم نحو بعض بحسب ما هو منبث فى تعاليم الإسلام التى يبصر المبصر فيها ما يدعو إلى تجاذب العناصر المختلفة وتلاؤمها عن طريق التفاهم والتعاون وربط ما بين تلك النزعات العديدة المتباينة مع التسامح فى نزعات

الأصول العنصرية التى تمت إليها بصلة قوية مشتـــدة لا يؤثر فيها إلا مثل هذه التعاليم . جاء فى القرآن الحكيم :

١ ـ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون .

٢ ـ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله .

٣ ـ اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم .

٤ ـ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له .

٥ ـ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم .

٦ ـ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله .

٧ ـ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب .

٨ ـ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا .

٩ ـ وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون .

١٠ ـ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان

١١ - ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم.

١٢ - وائتمروا بينكم بمعروف.

وجاء فى الحديث الشريف :

١ - كونوا عباد الله اخوانا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله .

٢ - انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، فإن كان ظالما رددته عن ظلمه «الحديث»

٣ - أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى.

٤ - من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يظلم جاره «الحديث»

٥ - المستشار مؤتمن.

٦ - خير الناس أنفعهم للناس.

ونحن لا نستقصى ولكن نذكر ما يخطر على البال ونؤجل البحث المستفيض إلى موضوع مدروس نكتبه إن شاء الله عند سماح الأوقات لنا بالاستفاضة الكافية.

فخلاصة ما فى هذه التعاليم والمبادىء وخلافها أن الدين الإسلامى قد حمل إلى الناس رسالة الفكر السامى ، فدعا إلى الاتجاه نحو نزعة مشتركة هى توحيد المعبود قبل كل شىء ثم ما تستلهم الروح المعذبة ، بعد ، من ثمرات هذا التوحيد الحافل بزاخر المعانى ومنابع الأخلاق الرحيمة ، وفى مقدمتها الإخاء العام ، والتفاهم ، والمعاملة الحسنة لكل فرد من أفراد الجنس

الآدمى ، ومساعـــدة المنكوب العاجز عن مكافحة أخطار الحياة ، وتطهير النفوس من أقذار الأوبئة التى تقسو على جوهر الروح فتبعده عن فهم مقاصد الله ايما ابتعاد . وهنا تنكس الفلسفة المادية رأسها ، ويولى شيطان المبادىء المفرقة إلى حيث لا يجد لفخته من مجال .

فمتى عاد المسلم إلى نفسه وتصور ما ترمى إليه هذه التعاليم السامية أمكنه أن يفهم الرابطة بينه وبين كل فرد من أبناء دينه — أو جامعته الكبرى — فمسلم تركيا ومسلم أفريقيا ومسلم جزيرة العرب مثلا سواء فى قانون هـذه الوحدة ، واجب على كل منهم أن تكون روحه ونزعته الحيوية العملية هى روح الآخر ونزعته ، وان تكون أيدى الجميع فى تكوين هذا البناء الفكرى والخلقى يدا واحدة ، وهذا هو الأساس الآمر به الحديث القائل «المسلمون كالبنيان الواحد يشد بعضهم بعضا » .

وفى ذلك جانب أيضا من الوحـــدة السياسية ؛ أما الجانب الأهم منها فشىء نظنه بعيد المنال فى هذه الآونة ، وهو أمر فكر فيه فيلسوف الشرق جمال الدين الأفغـانى ، ولـكنه كان فكرة فقط ، وحبذا لو تمكن المسلمون أجمعون أيا كان مقرهم ومحيطهم الجغرافى من ملاشاة الشخصيات العنصرية المتعددة لـكى يفنوا فى جنسية إسلامية واحدة كبرى ، كما كان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته إلى عهد كبير ، وكالأمر الجلل الذى يعنى به الآن صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية عبد العزيز آل سعود المعظم فى مساعيه وجهوده المبذولة صوب هذه الفكرة ، وأختها المتخرجة معها ، وهى « الجامعة العربية » ، وفق الله أساطين العاملين فى خير الإسلام والعرب ، وهو المسئول فى إعادة العزة الأولى للمسلمين .

حديث مع الرحالة الأندونوسى

ننشر هنا كلمة عن أوربا والشرق ،وهى ملاحظة بسيطة فيها من المعلومات ما قد يستفيد منه المطلع المتتبع لحركة سير العالم ، وهى ليست بحثا أو دراسة ولكنها كلمة أخذت عن فم عابر ، وحديث اقتطف من مشاهدات سائح هو السيد مصطفى رادين الرحالة الجاوى الاندونسى الذى قام برحلة من بلاده فى عام ١٩٢٩ ومر بالبلاد الأوربية ثم بالشرق ، وها هو الآن يلقى عصا تسياره بالحجاز ، وقد زارنا مرارا بإدارة الجريدة وبالدار ، فاستطعنا أن نستكتبه آراءه وملاحظاته عن بعض البلاد الشرقية والغربية ، وكان الوسيط فى التعارف بيننا وبين الرجل صديقنا الفاضل السيد محمد خليل المترجم العام بدائرة البرق والبريد . وهذا الرحالة شاب أقام سنة فى المانيا فاستفاد شيئا من المعلومات ، ويتكلم عدة لغات ، منها الانكليزية والفرنسية والهولاندية ولغة بلاده طبعا ، وقد وجهنا إليه الأسئلة الآتية فأجاب عنها كالآتى :

س ـ ما هو الغرض من هذه الرحلة ، وهل هو على أو راجع لأسباب خاصة ؟

ج ـ لأسباب علمية وقومية ، وهى أنى قائم لأدرس علم الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، وهذه الدراسة تلجئنى لأن أمر بعدة بلاد ، ودراستى لأجل المعلومات فقط ، لا من أجل نشر أية دعاية كانت ، فأنا أدرس السياسة

علميا لا عمليا . أما السبب فى ذلك فهو أنى أشعر بنقص كبير فى المعلومات وحاجة للاطلاع ، وأنا أتحاشى جداً أن يتسمم فكرى بدعاية سياسية خاصة ، لأنى أعتقد أن أية دعاية أقوم بها إنما تعوق رحلتى إلى أية بلاد أدخلها ، فضلا عن أنى لم أصل إلى الدرجة التى تمكننى من القيام بأى عمل سياسى .

س ـ متى بدأتم رحلتكم من أندونسيا ، وما هى البلاد التى رأيتموها ؟

ج ـ فى مايو سنة ١٩٢٩ ابتدأت رحلتى ، والبلاد التى مررت بها هى جاوى إلى سنغافوره ، إلى فرنسا ، وفيها زرت باريس ، ومنها إلى انكلترا وبلجيكا وهولاندا والمانيا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا والمجر ويوغسلافيا وبلغاريا وتركيا وسوريا وفلسطين ومصر ثم إلى الحجاز . وقد اقمت فى ألمانيا سنة حيث درست بعض فنون الاجتماع والاقتصاد .

س ـ أى شىء استلفت نظركم بالأكثر فى هذه البلاد ؟

ج ـ أما الناحية الاجتماعية فألمانيا ، ولهذا أقمت بها أطول مدة ، والمانيا تعد من أفضل الممالك التى مررت بها من الوجهة الدراسية ، بدليل إنها غاصة بعدد كبير من الطلبة الاجانب ، وأنا شخصياً أعرف أكثر من ٤٢ دولة من دول العالم تفضل إرسال أبنائها إلى المانيا للدراسة على أية دولة أخرى ، وهذا بالطبع رأيى الخاص .

س ـ وأى بلاد الشرق التى مررتم بها استلفتت نظركم أكثر من سواها من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ؟

ج - من الوجهة الاقتصادية تركيا لفتت نظرى أكثر من بلاد الشرق الأخرى ، أما من الوجهة الاجتماعية فإننى أعتقد أن الاجتماع فى البلاد الشرقية لا يزال فى مهده بالنسبة لما شاهدته فى أوربا ، غير أنى قد لاحظت انه أخذ ينمو ، فإذا استمروا على خطواتهم هذه فإنهم سيصلون فى وقت ما إلى مكانة طيبة من الاجتماع ؟

س - هل يمكن أن تحدثونا عن حالة التعليم فى أندونوسيا ، وهل هو قائم على الوطنيين أم على الحكومة ؟

ج - التعليم هناك يدار بواسطة الحكومة والأمة معا ، والحكومة تدير منه القسم الخاص بالعلوم الحديثة والفنون العالية ، وعدد المدارس وإن يكن قليلا جدا إلا أنه يقوم بمهمة كبيرة وقسط وافر من تعليم أرقى العلوم والفنون الحديثة ، غير أن نسبة التعليم لا تزال منخفضة جداً فى تلك البلاد بحيث لا تتجاوز ثلاثة أو خمسة فى المائة من عدد أفراد الشعب ، وذلك راجع فقط إلى قلة المدارس ، وهذه النسبة المئوية ينتج منها عدد ضخم من المتعلمين إذا عرفتم أن عدد سكان هذه البلاد يبلغ خمسين مليون نسمة .

س - ماهو رأيكم الخاص عن البلاد الحجازية من وجهة الدراسة والاجتماع ؟

ج - من الوجهة الاجتماعية لاحظت أن البلاد التى رأيتها فى الحجاز تفضل بكثير ما يكتب عنها فى الصحف الخارجية ، نعم أنا أعلم ان حالة البلاد من الوجهة الجغرافية والاقتصادية تعوقها كثيرا عن أن تتساوى والممالك الأجنبية من الوجهة الاجتماعية فى الوقت الحاضر ، ولا يمكن أن يقال إن الحجاز يصعب عليه أن يصل إلى مركزه اللائق به فى عالم الاجتماع ، فإن المركز

الاجتماعى لكل أمة يتوقف على أشياء كثيرة من أهمها حكومتها وحسن إدارتها ، فقد زرت عدة مجامع مختلفة وأدهشتنى الروح الحديثة التى شاهدتها فى كثير من أفراد تلك المجامع التى زرتها ، وقد استعرضت طبقات مختلفة من الناس ما بين عالية ومتوسطة وواطئة ، وتحادثت مع كثير من جميع أفراد هذه الطبقة من الأعيان وكبار الموظفين وغيرهم فوجدت انه يوجد نضال كبير بين أنصار التجديد والرجعيين ، نعم إن مثل هذا النضال يوجد حتى فى أرقى بلدان العالم ، إلا أن كفة التجديد تكون فى الغالب هناك أرجح من كفة الرجعية بشىء كثير ، وإن الحكومات إذا أساءت التدبير فى قيادة شعوبها فإنها تخلق بلا شك ارتباكا اجتماعيا اقتصاديا أو دينيا بين أفراد تلك الشعوب ، ولو كانت الحكومة التى تدير الحجاز غير حكيمة لكان الانفجار الذى يحدثه الحجازيون خصوصا من الوجهة الدينية أشد انفجار تحدثه أية أمة أخرى ، وذلك راجع لتعادل كفتى التجديد والرجعية فى هـــذه البلاد تعادلا يجعل التصادم بين الكفتين خطرا جدا على رفاهية البلاد ، بخلاف البلدان الأخرى التى تستمر فيها حركات التجديد ، وإنى لا أشك مطلقا فى أن الحكومة الحالية تقدر حق التقدير تطورات العالم الاجتماعية وتنظر بحكمة وحرص شديد إلى هذه التطورات وتعرف حق المعرفة واجبها نحو ذلك.

أما وجهة التعليم فإنى لا أستطيع أن أعطى فيها رأيا صحيحا حتى أقيم مدة كافية فى هذا البلد أستطيع فيها أن أكون لى رأيا عن هذه النقطة .

الى الأمام الى الأمام

من حق هذا الشباب المدرسى علـــى العموم علينا نحن الذين غادرنا مقاعد الدراسة إلى ميادين العمل فى هذه الحياة ، وعلى الأخص نحن الذين حاولنا ما حاولته هذه الكتلة القائمة بإنشاء مجموعة « الشباب الناهض » من التجربة الصحافية الدورية التى لا تتجاوز الصحيفة فيها حد المحيط الصغير الذى يحيط بصاحبها — أو أصحابها — من الذين يتصل بهم ويعرفهم . من حقنا نحن على هؤلاء أن نمدهم بكل شىء يمكن الإمداد به ، فنتحدث إليهم عن حياة فى هذه السبيـــل قمنا بمظاهرها إطفاء لغليل الشوق إلى العمل الصحافى ، وأن نكتب إليهم ما يوائم موقفهم من الأبحاث والمقالات والمواضيع ليضموه إلى مصحفهم — أو صحيفتهم — وهم قابلوه بعد ذلك بفخر وإعجاب وشكر ولا ريب ، فقد لاحظنا ذلك فى حركات أعينهم وألسنتهم وشخوصهم ، وان نرشدهم فنيـا إلى كل ما نضن به فى عالم الفن الأدبى ، خشية أن تنزلق أقدامهم ، وان نعضد مشروعهم فعليا بكل الوسائل المستطاعة ، ونحن نؤمن بعد ذلك أن هذا ليس واجبنا نحن — الذين يسميهم الناس أدباء هذه البلاد — فحسب ، بل هو واجب الوطنيين أجمع ، مادام هؤلاء يخدمون الوطن بهذه النشرات المحدودة الصغيرة ، فمن يدرى إن كانت هذه لن تنتشر فى بـــلادهم أوسع الانتشار وأقواه ، ومن يدرى إن كانت لن تؤدى فى سيرها هذا الضعيف واجبا أساسيا لعله بذرة صالحة فى النفوس الطيبة ، ولعله نداء مسموع مجاب ، من يدرى ؟ كلا لن

يتنبأ أحد بالمستقبل ، وعلى الأخص مستقبل الشباب المندفع المغامر المتصرف فى نواحى تفكيره إلى وسائل العلم والأدب والوطنية الصحيحة المستقيمة ، التى لاتشوب سيرها مقاصد مادية ولا أغراض قشرية يحسبها البسطاء لبا .

فهل درى أحد أن « فردای » عندما لعب بضفدعة ميتة ، كان مصير لعبه هذا الاهتداء إلى اكتشاف نظرية الكهرباء ؟ أو هل درى أحد أن عليا بن الجهم عندما خاطب الخليفة العباسى « المتوكل على الله » بأبياته البدوية التى أحسن ما فيها « انت كالدلو . . . انت كالكلب ، ، وقال الخليفة « مشجعا ! » : « اتركوه مدة فى بغداد يرى ما فيها من وسائل الحضارة ثم انظروا كيف يرق شعره بعد ذلك » إنه سيكون بعد ذلك شاعرا خالدا فيقول قصيدته التى مطلعها :

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
أثرن لى الشوق القديم ولم أكن
سلوت ولكن زدن جمرا على جمر

أو هل درى أحد أن موسولينى عند ماكان شابا حقيرا شريدا يبيت فى الطواحين الخربة « صفر الوفاض بادى الانفاض » يحاول العمل فى الصحافة البسيطة فيتدرج به الزمن والتقدير[1] حتى يصبح صاحب الكلمة النافذة ويقبض على تسع وزارات فى مملكته ، الأمر الذى ليس له مثيل فى التاريخ ؟ أو هل درى أحد أن « سيبويه » عند ما قال ، وقد وبخه

---

(١) أقصد تقدير أمته لشخصه طبعا .

استاذه على كلمة لحن فيها : « سأتعلم علما لا يلحنني بعده أحد » ، سيصبح يوما ما وهو زعيم علوم النحو فى الأرض كلها إلى أن تطوى العصور العصور والأجيال الاجيال ، ويصبح كتابه الذى ألفه فيه دستور العلماء وقرآنهم فى هذا العلم ؟ كلا لم يدر أحد ذلك قبل وقوعه ، ولا كان فى سعة أحد أن يتوقعه أو يتنبأ به .

كذلك — يا أخى المواطن أية كانت طبقتك — لست تدرى ولست أدرى ، ولا يدرى أحد الآن ماهى مكانة المستقبل التى ستهيؤها الأقدار والظروف لهاته المجموعات البسيطة التى يقوم الشباب المدرسى بنشرها بدافع إخلاص عميق للأدب والعلم والوطنية لا تلوثه أغراض واطئة .

أقول من يدرى ماذا أعده المستقبل لهذا العمل النقى واضرابه من ضروب الرفعة وتقدير الجهود ! اللهم لا أحد .

إذن فلتبسط فرحا أسارير هؤلاء القائمين بهذا العمل المجيد ، وليضيئوا حياتهم بضوء الأمل المشرق ، والإيمان القوى بنجاح جهود الاخلاص .

ولنشجعهم إذن نحن وغيرنا ، فإنما من حقهم علينا هذا التشجيع فى كل أشكاله ، وسيحفظ التاريخ أعمال المجد لأصحابها رغم كل شىء .

فإلى الأمام زمرة الاجتهاد ، ورجال المستقبل .

أدولف هتلر

لشخصية الزعيم الألمانى هتلر ، جاذبية تستدعى الكاتب السياسى الذى يريد درس مواقف أوربا الكبرى من العالم أن يبحث هذه الشخصية ، ومن ثم أن يبحث كيف تكون مذهب النازى « أو الناتشى » الحديث فى المانيا . وعلى ضوء هـــذا البحث يستطيع الدارس أن يتعرف العوامل التى تحفز دول القارة الاوربية جمعاء - أو الدول العظمى ذات الاهمية الأولى فى العالم - إلى تكوين سياستها الجديدة واختطاط السبيل التى تجدها فى زعمها أقرب وسيلة إلى نيل السلام .

الهتلرية حركة شغلت - ولا تزال تشغل حتى اليوم - أذهان العـــالم فى الغرب والشرق ، وقد أوجدها فى المانيا برنامج الضغط والتضييق الذى أخذت به دول الحلفاء بعد معاهدة فرسايل ، والذى أوجده ايضا التصادم والاضطهاد الداخلى ونشاط الشبان ، فظهرت هذه الحركة بقوة سائرة بين شتى الصعوبات حتى استطاعت أن تجد لنفسها الطريق ، واستطاعت أن تأخذ بزمام الأمور فى بلادها ، فأصبح العـــالم كله متطلعا لمعرفة كنه هذه الحركة وما ترمى إليه .

ولد الزعيم ادولف هتلر موجد هذه الحركة فى مدينة « برونو » على نهر « ألان » . وبرونو هذه مدينة صغيرة تقع على الحدود الفاصلة بين الدولتين الجرمانيتين التى يرى شباب المانيا اتحادهما أمرا يستحق أن يبذلوا لتحقيقه

كل ما فى وسعهم من وسائل، كما يقول هتلر نفسه فى كتابه المسمى « كفاحى » الذى نشر بكل لغات العالم الحية .

والدولتان الجرمانيتان اللتان يشير إليهما هتلر هما المانيا والنمسا ، وقد مر بهاتين الدولتين عهد كانتا فيه دولة جرمانية واحدة . وهذا الغرض هو من أعظم أغراض الهتلريين ، فهم يهمهم جدا أن يوجدوا هاتين الحكومتين لتحقيق فكرة وطنية سياسية قبل أن تكون اقتصادية ، فهتلر كان يحلم بمجد بسمارك موحد الشعوب الالمانية ، ويرى فى تحقيق هذا الحلم العظيم إعادة لكرامة المانيا التاريخية ، وإنصافا لموقفها السياسى الحاضر فى هذا العصر .

درس هتلر فى مدرسة برونو ، وفيها تلقف الثقافة السياسية الوطنية بمدركاته ، وبما أوحاه اليه فى طفولته شعور الاطفال الالمانيين العام من وجوب تعزيز أمتهم وضرورة دمج النمسا فيها .

وقد نشأ هتلر ، فقيراً ، ولكن لأسرته قليل من المال أتلفته حينما مرضت أمه ؛ فسافر إلى فينا يبحث عن العمل الذى يعيش منه كما يبحث أمثاله من أبناء الفقراء والأسر المستضعفة .

وكان أوضح ما لفت نظره فى هذه المدينة الفتية الصاخبة بهاظة ثرائها وإدارة حكومتها المركزية التى يراها فى نظره من أكثر الأمور غرابة ، حيث تتكدس السلطات بصورة مشوشة فى بلدة واحدة ، وكان يرى أن نظام اللامركزية كفيل بتحسين الإدارة فى هذه الحكومة الهائلة .

وكان أدولف الصغير فى مقامه بفينا العظيمة يستوحى العبر الباهرة ، فيدرك ان الإصلاح يتطلب اسلوبا مزدوجا هو أن نشعر شعورا عميقا بأن علينا

مسئولية أن نوجد أسسا حسنة لسيرنا ، وأن نصمم على نسف المشاكل التى لا نستطيع لها حلا .

ورأى هناك من بؤس العمال ما أثر فيه واسترعى انتباهه .

وفى سنة ١٩٠٩ أخذ يزاول صناعة الرسم والنقاشة متجولا فى أسواق « فينا » وشوارعها العامة ، مصطحبا أزميله فيعمل ليكسب قوته ، لا يعوقه ذلك عن الدرس والتأمل ، حتى انفتحت أمامه أبواب الادراك لمجرى القضايا الاجتماعية والسياسية والوطنية المتعلقة بألمانيا ومصيرها التاريخى العظيم ووجوب انقاذها من بغض النمسا .

بلغ العشرين من عمره ، فأدرك أن النقابات قد تكون أدوات للدفاع عن الحقوق الاجتماعية للعمال ، وقد تكون غير ذلك أدوات تستعمل فى النضال السياسى ، فوجه نحوها نظره وأعطاها أهمية كبرى بالنسبة لأنظاره الواسعة ، ودرس الديموقراطية الاشتراكية التى وجد فيها نصيرا لحقوق العمال ، ثم وجد السياسة تستعمل أداة لتخريب الاقتصاديات ، ومن هنا نشأ عنده بغض « اليهود » لأنه رأى فى صفات هـذ الجنس ما يلائم تخريب الاقتصاديات التى وجهته إلى مبادىء الديموقراطية الاشتراكية .

وظل فى فينا يتتبع حوادث المانيا السياسية والثقافية ، ثم أعجب بصاحب التاج غليوم الثانى ، وساءه أن يعمد البرلمان الألمانى إلى سياسة معاكسته .

وللفردية فى رأى هتلر مقامها المحترم ، فهو يدعو إلى حفظ حق الفرد وعدم جواز تلاشيه فى الجماعة ، وقد كره الشعب اليهودى ، لأن مذهبه ينكر قيمة الفرد بين الناس ، ويحارب أهميته القومية ، ويجرد البشر من كل معانى

وجوده واتجاهاته ، وهو بهذا — كما يقول — يقضى على كل الأنظمة البشرية وإن عد نفسه مذهبا بشريا .

وكان رأيه الأخير أن جمع هذه البلاد الجرمانية كلها تحت لواء واحد لا يكون إلا بإيجاد لغة رسمية واحدة تسير بتأييدها الادارة فتكون عماد الدولة .

ورأى ان السبيل الواحد لتوحيد ذهنية أبناء الدولة توحيدا دائما هو التعليم والمدارس اللذان رأى فيهما واسطتين لتحقيق هذا الغرض فى عشر سنوات أو عشرين ، بل فى قرون ، وهذا الأمر لا يفيد فيه الجهد المنقطع القصير الأجل ، وإنما يفيد فيه وينجحه الثبات والاستمرار .

وهكذا كافح هتلر فى الحياة ، ونشر مبادئه بقوة حتى اعتنقها الشعب الالمانى بأسره ، وهو الشعب الذى انبعث فيه روح الحياة من جديد وأصبح يطالب أوربا بمركزه تحت الشمس .

مناقشـــــة مثل

تحليل قولهم « رضا الناس غاية لا تدرك »

هل يطلب ذو فكرة أن يرضى الناس عن فكرته المرسومة ، التى يرغب أن يطلقها مع أمواج الحياة تتغلغل فى صميمها ؟ والناس على اطلاق الكلمة عالم لا يحد ، عالم واسع الآفاق يمور بشتى النزعات وعديد العواطف ومتضارب الأهواء لا يكاد يجتمع فيه هوى على هوى أو تمتزج فيه نزعة ونزعة ، فالرضا العام بمعناه المتسع أو محاولة هذا الرضى من ذوى خطة حيوية إنما معناه تجربة لإمضاء طبع جديد ليس فى عنصر الحياة ولا هو مما تتقبله الأمانى المعقولة ، ولكن فى أمانى البعض ما هو شاذ أهوج متهدم الأساس ، ينحدر شذوذه إلى مهوى الاستحالة السحيق ، وهو فى تهدمه وشذوذه مسف إلى ما ليس فى طبيعة الوجود ، وعندما يحس بالاخفاق ونكران الحياة لموقفه غير الطبيعى تراه يتقدم إليك مصورا لك خيبته فى الصرخة الدارجة : « رضا الناس غاية لا تدرك »

صحيح ، نعم إن رضا الناس ـ كما قيل ـ غاية لا تدرك ، غير أن فى جانب هذه الصحة صحة أقوى منها ، وهى أن رضا الناس حالة نفسية لا تغزوها اطماع مستقيمى التفكر ، فمن ذا الذى يظن أن الجماعات كلها فى مستوى واحـــد من العقلية وعلى غرار متسق من اتجاه العاطفة حتى ينتج من هذا انها ترضى متحدة وباطراد عن فكرة أو خطة أو عمل يقوم به فرد جبار ماض فذ

فى مهمته ، من غير أن يكون لتلك النفوس المتباينة فعلها فى تكوين مواقفها؟ أمام ذلك الأثر موقف لا يكونه إلا ما فى طبيعة تلك النفوس المتعددة من استعداد لفهم ذلك الأثر؟ وكما يكون ذلك الاستعداد والتكوين النفسى «ضعفا أوقوة ، واستقامة أو اعوجاجاً ، ونفوذا فى الفهم أو تلكؤا فى سبيله» يكون الموقف الحاكم الذى ينطق عن ميله فيكون الرضى أو السخط .

ثم ما هو الرضى ، وما هـــو السخط ، فى معناهما السطحى إذا شئنا ان نفهم المثل بهذا المعنى ؟ إذا كان الرضى المقصود فى المثل هو الهدوء الظاهرى ومقابلته المشروعات الجديدة أو النظريات التى تلوح مبدئيا أنها شاذة أو الأعمال الفردية ، بشبه ركون إلى صحتها أوأحقية وجودها من دون أن تكون الثورات الباطنية فى نفوس الجمهور موضع تفكيرنا والتفاتنا . إذا فسرنا الرضى بهذا الحالة فما أهون قيمة المثل فى حياة التفكير ، وما أسخف ما يحمله من معنى ركيك مبتذل !! لأنه يكون القصد منه تعطيل ملكات النقد ومصادرة الرأى العام وطلب الجمود وسلب الحرية واستقلال الفكر .

أما إذا كان الرضى المعنىّ فى الكلمة هو اطمئنان النفس واشتراكها الفعلى مع من يؤمل الرضى عنه بعد اقتناعها وإعجابها بقيمة الشىء المرضى عنه فهنا تكون الكلمة جديرة وحرية أن يعطيها المفكر قسطا من همته ليناقشها كما تناقش الأفكار ذات القيم ، وإذن فنحن حريون أن نقرر فلسفتنا آنفة الذكر مثبتين أن النفس الإنسانيـة حافلة بشتى الميول والتصورات والوان الانفعالات والنظر والاستعدادات لفهم مايصدر عن «الانسان» من عمل أو فكر ، فالإنسان انسان ، وهو أهول ما يكون فى نفسه العميقة

وآثارها ، فرضى الناس ، عن شيء طلب سخيف ، ثم كيف يكون هو « غاية » انسان حى حساس متيقظ النفس مغمور بالحياة ؟ وهل الغايات إلا « مطالب » عويصة المسلك يغامر فى نيلها الجرىء المقدام ؟ وأى مسلك يا ترى يجب أن يسلكه « الانسان » ليعبر إلى قرارات النفوس المختلفة أشد الاختلاف فى أنظارها وفى تقريراتها عن الحياة وآثار الحياة وفى أحكامها الهوجاء منها والرصينة ، وحتى فى أشكال تلك الأحكام !؟ ولا أدرى هل فكرة « حصر النزعات والأذواق فكرة ولدتها الحياة حتى الآن ، وهل هى تتسق مع قانونها الجبار الواسع الممتلىء بالقوة المبثوثة فيه من غير حساب ؟! والقائم على ضرورة الاختلاف بين أذواق الناس ونزعاتهم لتكون منتجات الفكر بألوان تقتضيها طبيعة الطبقات والأفراد والظروف .

هذا ما أثار فىّ عامل البحث فى هذا المثل . ولقد يطرفك أن أقول لك إنى ما فكرت قط فى أن أجعله ساعة موضع بحثى ، ولكن أديبا معروفا حملنى على البحث فيه وقد أطلقه فى إحدى كتاباته إلىّ ، ولعل طبيعة الأدب توقظ فيه - هو بدوره - حب الدفاع والمناقشة إذا شاء أن يرضى موقف المثل ، أو الموافقة المنطقية إذا عرف أن المنطق لا يريد أن يرضيه .

أيها الموت [١]

شعر منثور

ايها الموت !

اى بلاء انت ! تدع النفوس منسحقة كذرات الهباء ؟

اية داهية خرساء ! تنزل بالأرواح فاذا هى لا شىء ! ؟

ياموت !

هأنذا الآن أحس وأفكر ، وأكتب وأنظم الشعر ، واتأمل الحياة ، واتمرد على نظمها عندما أشاء ، ثم أعانقها وأتغلغل فى ملابستها ، ثم اعيد الكرة عليها دواليك . .

ولكن ياموت ! . . . . اين أغدو بعد خمسين سنة ، أو أربعين ، أو ثلاثين ، أو عشرين أو ربما بعد عشر سنوات وربما بعد أقل ، وقد يكون هذا الأقل ساعات أو لحظات ؟

وأين يكون مصير هذا الغدو ومستقره بعد مائة عام أو مائتين . . . ؟

أصحيح عند ذاك ان جسما بشريا « كان » فى هذه الحياة ؟

كان انسانا يفكر ويحس ، ويكتب ويشعر بالحياة ، وتلابسه ويلابسها ويتعمق فى نظرياتها ويطعنها فى صميمها مرة ويقدسها مرة اخرى ؟

« كان ! » . . . .

« كان » هى الكلمة الغارقة بين بلاء الموت ونعمة الحياة .

---

(١) نشر فى الصفحة السادسة من العدد الثامن من صوت الحجاز الصادر فى ٢٤ محرم سنة ١٣٥١

أنا الآن فى غمار العالم الحى أفكر فى وقعك الهائل يوم تقع ، أفكر أية قيمة بعد لهذه النفس المشتعلة كـكوكب السماء ، أو كمصباح الكهرباء ، تشع بنورها المقدس وهى إحدى نفوس محتشدة بعضها يطفح بنوره الدافق وبعضها يبص كما تبص قطرات الاندام .

ياموت يا أسد الحياة المفترس !

ويل لها منك ايها الجبار الاثيم ، وويل لك منها !! إنها تصب عليك لعناتها . . . ولكن بلا جدوى !

وهأنذا الآن ألقيت بالقلم وقتيا لأتصور فتور الحركة بعد الحياة . ياللتصور !! ، وهأنذا أرمق أشعة الشمس من نافذة المكان ! هذا المكان الذى سأغادره حتما الى عالم الابدية الذى سافر اليه كل من « كانوا » فى الوجود ! ابطالا وجبناء ، وعلماء وجهلاء ، اذكياء واغبياء ، دهاة وبسطاء ، متشائمين ومتيمنين ، متمردين ومستسلمين ، شتى جيوش حشدتها الحياة فهزمتها أنت ساخرا بقوتها دائما فى عملك ولا تقف دورات الافلاك ولا يستريح مضى هذه المجموعة الشمسية السائرة ولا يتغير هذا النظام .

وبعد ، فهل يتاح لك ايها الجبار اللبق ان تلقى هذا الستار المسدول دون ماترمى اليه ، وان تخفف وطأة الشفف عن هذه العقول التى تلوب حول اكتناه اسرارك الرهيبة ، والتى تصطلى بجحيم لا يطاق من حب المعرفة واللهف الى العلم العميق ، والتى اذا رامت ان تلطف من لفح غليلها العلى قرعت اجراس الحياة بأنامل الفلسفة واوغلت فى تفتيش المجهول عن طريق الفكر ، وأنى للفكر والفلسفة ان يعينا عليك الحياة ؟

ألا ما أروعك ايها الموت ، وما أعمق اسرارك ، وما اشد ما يصدر عنك المفكرون كما وردوا غير واقعين على المقصد المنشود من هجماتك ولمساتك ايها الكائن الكبير .

السعادة

ما السعادة ؟ وما طريقها ؟ وهل هى متاحة ميسورة لطلابها فى هذه الحياة ؟ تكاد هذه الخواطر تكون عامة من حيث انها ترد على كل ذهن وتطرق كل مخيلة فيما أظن ، ولكن الشىء الوحيد الذى يمتنع عن العقول العامة ، ويعسر على معظم السواد الأعظم ، ويغرب عن بال المجموع ، ولا يستطاع اصطياده لكل ذى سهم أو أحبولة ، انما هو الجواب الحقيق على هذه الأسئلة والعصى المشبع المعقول الذى يطفىء الغلة من طريق البحث والتقرير . وللناس آراؤهم فى هذه المسائل ، وهى طبعا مختلفة متشعبة ، كل يرى السعـــادة كما يجب أن يراها لا كما هى ، وكل يفسرها التفسير الملائم لعقليته وطبيعة تفكيره ، ولكنه يعجز عن تفسيرها التفسير الذى يحددها ويضع معالمها ويشرح أجزاءها وجملتها ، ويقنع كل طالب للبحث أو سائل عن الحقيقة ، فمن ظان ان السعادة هى توفر المطالب الجثمانية ، وطريقها إذن هو الغنى والصحة والشجاعة والقوة والنفوذ . ومن قائل إنها اكتمال النفس من حوافز الحياة الروحية ، فسبيلها إذن الفضائل الذاتية والفضائل العامة كالإخلاص والعلم والعمل والمحبة ، وهو رأى المتصوف وبعض الآخذين من العلم الدينى بطرف ، وما إلى هذه الوسائل ، وقائل آخر يزعم انها تركز العقل عن طريق التهذيب بالمعرفة والثقافة ، وآخر يقول إنها لذة العيش عامة بالتخلى عن كل قيد وفكرة واراحة النفس من أعباء الإنسانية ، وطريقها فى هـــذه الحالة طريق سلبية وهى الجنون أو « الابتقورية » أو

الاستهتار . وأنا ما رأيي فى السعادة ، وفى الطريق الموصل اليها ، وفى امكان تيسرها للطالبين ، أو عدم امكان هذا التيسر ، إذا كان لى رأى ناضج مختمر فى هذا الموضوع الفلسفى ؟

رأيى أن السعادة هى الأمل العظيم المعقول ، تخطىء النفس فى سبيل تحقيقه ومزاولته ، ويبقى لها إيمانها مكان هذا التحقيق ، فلا سعادة لنفس ليس لها مطالب وأتعاب ومنى ، ولا طريق للسعادة العلياء إلا من داخل النفس ، فكل وسيلة خارجية تطلب بها السعادة ليست إلا وسيلة مخدوع بها المرء ، وإنما وكده من تلك الوسائل أن تبلغ به سفح السعادة ، مهما حسب المسكين أنه بالغ قمتها ، وانى له بلوغ القمة وهو لا يملك قوة المطار اليها ، مالم تكن تلك القوة فى أعماق نفسه دفينة راكنة ؟ ، وأذكر للقارىء رأيى فى السعادة قبل ثلاث سنوات حيث كتب إلى أديب بمكة رسالة يستنبىء بها نبأ صحتى وهل أنا سعيد ؟ فأجبته بما يأتى :

« السعادة — كما أتصورها الآن — شىء أساسه التخيل ومرجعه الوهم ومغالطة الإدراك . ولا أدرى إلى أى مدى يصل عدد الذين يستطيعون أن يتركوا الوهم فى أنفسهم يسيطر على الإدراك من أجل أن ينالوا متعة هذه السعادة المتخيلة ؟

أحسبك تزجر . ولكى تكون زجرتك أشد أقول لك إنى غير سعيد بحياة تزدحم فيها رغبات النفس ثم أحس فى خلالها بتلك الرغبات وهى تتصافق حتى ليزعج وجدانى تصافقها المشتد ، ثم أرى قسوة الظروف وسخف الفهوم يسدان الطريق أمام حرية تلك الرغبات الملحة القوية التى لو أتيح

لها أن تقتسر الظروف أو تتخطى حدود الأفهام لما تلكأت ساعة واحدة ولأقدمت إقدام الآتى لا يلوى على شيء ولا يقف فى سبيلها شيء ، ولكنها أشواك الحياة يا صاحبي ليس منها بد للسائرين فى هذا الحقل المتسع .

هذا أعظم خبر فى أحوال حياتى أرويه اليك إذ كانت رغبتك أن تعرف أحوالى كما ذكرت ، وإخال انه فى الوقت نفسه أعظم أخبار الحياة البشرية بأسرها ، لأنه خبر دائمى تستشف منه طبيعة النفس الإنسانية .

هذا ما جاء فى رسالتى القديمة عن السعادة ، وهو رأى صادر عن فلسفة التشاؤم الطبيعية . والرأى تعتريه ضروب التغيير السطحى بل العميق أحيانا ، فتنتقل النفس فى تكوينه من شاطىء قريب فى الفكر إلى شاطىء بعيد ، وقد يكون الانتقال من شاطىء بعيد إلى شاطىء قريب أو إلى أقرب ، وهى حالات — كما قلت — تعترى النفس فيسرى مفعولها إلى الفكر ، وهذا هو واجب الحياة الذى نؤديه فى النفوس البشرية وإلا لو جمدت النفوس والأفكار على لون واحد — وأقصد اللون الظاهرى — من ألوان التفكير لانقلبت هذه الحياة إلى جحيم موبوءة لا مستقر فيها إلا للشياطين والزبانية ، ولساد سوء التفاهم وشراسة الخلق ، والإنسان ميال بطبعه إلى المفاهمة والتعارف والاجتماع ، فإذا اصطدم بما يقطع عليه الطريق لتحقيق نتيجة ذلك الميل فلا تفتأ أن تراه بشرا مستأسدا وروحا متنمرا ليس ببعيد عن الوحش الضارى والكلب العنيد .

لهذا أرى ان الحياة محسنة جدا إلى الأحياء ، إذ هى لا تترك النفوس الإنسانية رهينة نمط واحد من أنماط الأفكار ، ولكنها تتناول هذه النفوس

بالتقليب والغربلة ، فتارة تصفو وتارة تربد فتجيش بأسرار الحياة وتكون آراؤها كما يجب ، فتتفاهم ويسهل للعلم والفلسفة أن يمشيا فى طريقهما وأن يؤديا رسالتيهما بينتين متزنتين فلا مفر إذن من الألوان تتعدد فى آراء المرء ولكن المفر محتوم من التباين فى هذه الآراء .

فن الرواية

قصة « مرهم التناسى »

لست أقصد دراسة مشبعة فى هذه التأملة ، وإنما هى كلمة مقتضبة سريعة ناقدة أبعثها فى عجلة الأعمال غير الأدبية وبين موانع الظروف التى تقسرنى على عدم التفرغ للأدب والنقد ، كلمة أثارتها عندى الرواية ـ أو القصة المنشورة فى الأسبوع السابق باسم « مرهم التناسى » للشيخ عبد القدوس الأنصارى . وأذكر القراء بما كنت كتبته ماضياً عن عبد القدوس هذا من عاطر الثناء بمناسبة أبحاثه وملاحظاته اللغوية التى نشرها فى أعداد هذه الجريدة . أما الآن فأقف معه موقف الناقد الفنى الصريح بمناسبة نشره هذه الرواية ـ كما سماها ـ فإن الفن غير العلم أيها الكاتب المحترم ، وإنه لا فن ألبتة فى هذه القصة التى نشرتها على الأسماع والأبصار ، ولا روح فيها ولا ذوق ولا خيال ، وسيأتيك البيان المفصل . واعلم قبل كل شىء أنه لا ضير عليك ألا يعدك الأدباء الفنيون أديبا فنيا أو روائيا أو قاصا على الأخص ، فليس ذلك من شأنك ، وإن لك لشأنا فى الأدب غير هذا ، فإذا عدوته إلى سواه فأنت جد مسف .

الرواية يجب أن تقوم على موضوع اجتماعى قوى ، أو على مذهب فلسفى جدير بالتنويه ، أو على الدعوى إلى خلق أو عقيدة تحدث ملء الفراغ ودويا فى قيعان النفس ، وأن تعتلى درسا جيدا له من الفكر والواقع

عماد مدعم ، أما أن تكتب قصة هى أشد الكلام شبها بحكايات « جحا » أو نوادر عجائز البيوت فى الضعف والفتور تقصد بها الموعظة القصيرة وترمى على علاتها يتخللها الجفاف والضعف فذلك شىء يرفضه الفن والأدب.

ولقد ذكرنا الشيخ عبد القدوس هذا بروايتـــه « التوأمان » التى نشرها على حدة فلم تصادف رواجا فى الطبقات الأدبية الممتازة وعند الشباب المثقف ، لأنها خالية من كل مقومات الفن الروائى الجيد الذى يجتذب النفوس ويلقح العقول ، على ما فيها من ثقل الوطأة وضعف الفكر وتفاهة الموضوع وفقدان الاستقصاء وبتر الفكرة وحشـــو اللفظ ورداءة المعنى ، وكان فى عزمنا أن ننقدها حين ظهورها ، ولكنا تركناها تموت بنفسها وبفعل الحياة القوية التى لا تقبل إلا القوى وهكذا كان . فما راعنا من كاتبها إلا وهو يرزأ الأدب مرة ثانية بقصة ناضبة يحدثنا فيها عن « حقيبة » تكتظ بالحزن والهموم علقها صاحبها فى نياط قلبه ودار بها فى الأسواق كأنما هى حقيبة حلاق أوجرة بائع عرق سوس ، أو بردعة بعير ينوء بها حملا ثم « مرهم التناسى » المستخرج من « صيدلية الآمال » فيا لهذه الغثاثة والإسفاف فى التعبير إلى حيث تتصفع الآداب العالية ، وتهان كرامة الفن القويم .

وإنا ننصح للشيخ الكاتب أن يتناسى هو بدوره فكرة كتابة الروايات فإن روحه الأدبى ليس روح روائى ولا كاتب فنان ، وليعد إلى بحثه اللغوى فى دائرة قواعد النحو والصرف فحسب فإنا له شاكرون ، ولجهوده فيه مقدرون .

إلا أن التفاهة فى الأدب النفسى شىء يقعد به عن النهوض ، فعلى الشاعر والكاتب والأديب أن يحس بروعة الفن الحى ، وأن يأخذ هـــذه الروعة

من جمال الحياة وقوتها ، وصدق الطبيعة وانسجامها ، وأن يوجه سير الأدب إلى الجهات الحقيقية الجديرة بالتقدير والإعجاب والهتاف . أما إن عجز عن هذا الأمر فليترك سبيل المعالجة الملتوية الناقصة . ولقد عرفت من عبد القدوس الأنصارى أنه ليس من ذوى الملكات القديرة على الفن الروائى .

وإنا لنعد قراءنا الكرام ببيان ملاحظاتنا النقدية فى فن القصص الحديث فى فرصة سانحة تخول لنا التبسط فى شرح الموضوع .

أما الآن فسبيلنا تبين مناحى العجز فى هذه الأقصوصة التى نحن بصددها ، وإنه لفى ما يأتى من النقاط :

(١) انعدام الجو الفنى اللازم للقصة .

(٢) قصر النظر فيها إلى حالة النفس الانسانية بترك تحليل الأخلاق والعواطف ، الأمر الذى لا يجوز إهماله مهما قصرت الرواية .

(٣) بعدها عن حقائق علم النفس .

(٤) المفاجأة البشعة فى الانتقال من خلق الرجل المحزون إلى رجل مراح بفعل « مرهم التناسى » طبعا ! بدون تمهيد أو تعليل معقول .

(٥) خلوها من الخيال الممتاز برغم ادعاء كاتبها « فى الحاشية » أنها « امتزج فيها الخيال بالواقع » .

(٦) البلى والبرود والتفاهة فى موضوعها .

(٧) جعلها عبارة عن موقفين متناقضين بدون أن يعمل الفن عمله

فى تطبيق هـذا التناقض على طبيعة الحياة ، كما هو الحال فى قصـــة التوأمين أيضا .

(٨) سوء الأسلوب وضعفه وركاكته .

(٩) حسبان المؤلف أن الخيال هو الاستعارة القديمة الممثلة فى وضعه للآمال صيدلية ، وللتناسى مرهما ، وللأحزان حقيبة ، ولم ينس أن يستخرج من هذه الصيدلية « روشتة » طبية بالدواء اللازم كتب فيها لصاحبه المحزون (تواظب على تعاطيه فى غدواتك وروحاتك) !

(١٠) فقدان الانسجام . الخ .

ولو كانت هذه القصة طويلة كـقصة التوأمين لأقنعنا مؤلفها بشرح كل نقطة من هذه النقاط العشر التى سردناها له شرحاً دقيقا وضربنا له الأمثال من قصته بأوسع بيان ، ولـكن هذا المقال لا يتسع لذاك والقصـــة نفسها لا تستحق منا هذا العناء .

فإلى المتقى . الى حيث تشاء المناسبات ان نعرض لقصة التوأمين إذا بدا لنا ان نعرض لها ، فإن العيوب فى الروايتين واحدة ، وروح المؤلف فيها واحد.

عود على قصة « مرهم التناسى »

قلنا فى مقالنا المتقدم ما مؤداه : ان « الغثاثة ولوائح التلاشى وسعة الدعوى التى يشمئز منها الباحث فى قفزة ذلك النفر الضئيل « من العبد القدوسيين أو العبادقة ، كما تشاء النسبة والنحت » الذين زجوا بأنفسهم فى صف الكاتبين ستعلن عن نفسها عندما تبدأ هذه الأدمغة الجوفاء فى الهوى إلى بؤرة الافلاس العقلى » ولقد صح تنبؤنا هذا ، ورأى الناس على صفحات صوت الحجاز الماضى أوحالا من اقذار الذهن الكليل ليس من كرامة النفس ، وليس من كرامة الفكر ان نتنزل الى الاجابة عنها ، وانما اروع سخرية بتلك العقول أن نعود الى البحث الهادىء فى تحطيم حكايتهم « مرهم التناسى » من جديد ، وذلك بأن نشرح كل نقطة ضعف فيها مما سبق ان أشرنا اليه فى العدد الحادى والثمانين من هذه الصحيفة ، لعلمنا ان هذا الضعف انما هو فى فن عملها قبل أن يكون فى هيكلها ، ولنريهم أنى يقع الأدب الأجوف من الأدب المليء ! وإلى القراء ما يأتى فى تحليل الخلل « فى القصة » :

١ — انعدام الجو الفنى

ماهو الجو الفنى أولا ؟ ذلك ما يخطر للقارىء أن يطلبه منا ، وهذا ما علينا أن نبينه لعبد القدوس الشنقيطى ، لا الانصارى ، فقد قيل لنا إنه

ليس من هذه العائلة الكريمة من أهل المدينة المنورة ، فإننا نزعم أنه يجهله بالمرة هو ومناصروه الضئال بحكم بعدهم عن الثقافة وعلى الاخص فى فنون الأدب .

فالجو الفنى الرواية ، انما هى المعلومات والبيانات التى يجب أن يعرفها القارىء عن زمان الرواية ومكانها وطقسها والشخصيات الذين يتحدث عنهم الكاتب فيها ، والظروف السيئة والحسنة التى تحيط بهم ليتم للكاتب إعطاء فكرة ناضجة عن الموضوع الروائى الذى يعالجه ، وليكون التأثير فيما يدعو اليه أدعى الى أن يتقبله القارىء . وهذا هو الفرق بين الرواية وبين النادرة والفكاهة والحكاية التى تقصد منها الموعظة القصيرة التافهة والتسلية كما هو الحال فى مثل هذه النادرة الملفقة التى يأبى جهل ملفقها الا أن يسميها رواية أو قصة . . .

قال الأديب الافرنسى العظيم « الفونس دى لا مارتين » فى مطلع روايته الخالدة « رفائيل » : ان من الامكنة والاجواء والساعات والفصول والظروف الخارجية ما يتصل سلكه بحبات القلب ومشاعره ، حتى لتخال الطبيعة جزءا من النفس ، والنفس جزءا من الطبيعة ، فاذا فصلت المسرح عن الرواية والرواية عن المسرح ذبل المشهد وضؤلت الفكرة وانمحت العاطفة . جرد « رينيه »[١] من شواطىء بريطانيا الصخرية ، و« آلام فرتر »[٢] من أندية السواب الكثيفة ، و « بول فرجينى »[٣] من غوارب الماء المشبعة

---

(١) هو اسم رواية صغيرة جدا للكاتب الفرنسى شاتوبريان .

(٢) هى رواية فلسفية اجتماعية خالدة للشاعر الالمانى العظيم جوتية عربها الأستاذ الزيات بمصر .

(٣) اسم رواية غرامية للكاتب الفرنسوى برناردن دى سان بيير معربة بقلم المرحوم المنفلوطى بعنوان (الفضيلة)

من الشمس ، وجبال المارن الناضبـــة من الحرارة فإنك لاتكاد تفهم فن « شاتوبريان » ولا « جوتيه » ولا « برناردن دى سان بيير » .

هذا هو الجو الفنى اللازم للقصة ، فايفهمه جيدا من تحدثه نفسه بكتابة الروايات ، وليقل لنا الآن ذلك الطفل الكبير اين هو الجو الفنى فى حكايته المسكينة الجحوية الفارغة ؟ ثم لا يحسب أن حكايته الثانية المطبوعة على حدة سلمت من هذا العيب الفاضح فإن الجو الفنى منعدم فيها أيضا . والى المنتقى حيث البيان المفصل عندما ننقدها على صفحات هذه الجريدة بإسهاب .

٢ — قصر النظرة إلى النفس الإنسانية

النفس الانسانية عباب تصفق امواجه وتصطخب أواذيه ، وهى مثال حسن للطبيعة ، فيها ما فى هذه من الإبهام والهول ، وما فيها من الوضوح والاتساع ، فالكاتب — ولا سيما الروائى — إذا أهمل حالة النفس الانسانية وغفل عن تحليل ما فيها من بواعث الاخلاق والعواطف فإنما هو صفاف حروف وليس بكاتب أفكار ، فإذا نظر القارىء إلى قصة هذا الرجل الشاذ ولنسمها قصة تسامحا — وجد نفسه وهو مغمض العين أمام شخص لايدرى ما هو وأين خلق وكيف تكونت اخلاقه ، ومن أين أتى اليه هذا النضوب النفسى الذى حمله على ان يحرص « على تسجيل آلامه ونقش أحزانه على صفحات فؤاده فلا يكاد يصيبه غم — حقيرا كان اوجسيما — الا أفسح له فى صدره مكانا ، وآواه الى مستودع خاص » ؟ فإن نفسا كهذه لا شك أنها

تستلفت النظر ، ولكن نظر الكاتب الضليع طبعا لا الكويتب المتطفل — وتستحق ان تدرس وان تحلل اخلاقها وظروفها لتعرف أوصل صاحبها الى هذه الحالة نتيجة تفكير فى اوصاب الحيـــاة ، ادى به الى العزوف والزهادة الفلسفية فى محابها ولذاتها ففسح للآلام فى نفسه الجانب الحصين فهو يفعل هذا رياضة وتجربة وتذوقا للآلام التى أهل لنفسه اسبابها ؟ أم هو رجل منكوب رزىء فى أعز الأشياء عنده فرأى الحياة من جانبها القاتم ، فهو يفعل هذا اضطرارا وخضوعا لقوة خارجية قاهرة ؟ هذا ما يجب ألا يهمل فى موضوع كهذا ولكن الكاتب أهمله متناسيا — او ناسيا لا ندرى — واجب موضوعه الروائى الذى تصدى له والذى لو وفق اليه لأعطى قراءه الفكرة الحقيقية لحياة الرجل المحزون فيظهر الموضـــوع تاما مشبعا .

٣ — بعدها عن حقائق علم النفس

أجل ، فرغما عن هذا القصور فإن صاحب الحكاية يصطدم فيها مع حقائق قررها علم النفس . خذ مثالا قريبا جملته المتقدم ذكرها التى يقول فيها عن بطل حكايته الموهوم : « فلا يكاد يصيبه غم — حقيرا كان أو جسيما — الا أفسح له فى صدره مكانا وآواه الى مستودع خاص به » فهذا ضعف بصيرة بحقائق علم النفس من ناحية انه لا يصح ان تكون فى النفس البشرية مستودعات خاصة بالهموم ، أو الغموم على حد تعبيره ، اذ ليست النفس

البشرية مخزنا للبضـــائع يرص فيها كل صنف فى رف من الرفوف وحده لايختلط بغيره وإنما هى كلها منبع — لا مستودع — واحد لاعدة منابع — ومن طريق أخرى لا عدة مستودعات — لمجمل النوازع والعواطف، والأفكار تموج فيها وتضطرب، كما هو شأن الخضم العميق، اما الجمادات فهى وحدها التى يكون فيها مستودع خاص للأشياء، لا الأنفس ولا الصدور .

وخذ مثالا آخر: هذه الحقيبة المضحكة التى يعلقها بطل الحكاية بنياط قلبه وهى تزخر بماضى أحزانه حاضرها ومستقبلها، فهل حدثنا العلم الحديث عن مكان هذه الأنوطة وهذه الحقائب التى تعلق فيها من القلوب الآدمية، وعن نوع هذه الأنوطة « المسامير » الخاصة بحقائب الأحزان؟ وهل للأفراح ايضا حقائب اخرى يعلقها من شاء بأنوطة أعدت لها؟ وهل انوطة حقائب الأحزان هى نفسها انوطة حقائب الافراح؟ ياللهزلة الفاضحة والغباء المغلظ والعماية الصماء، والطفولة فى بسائط العلم!.

ومثال ثالث: هذه « الحوالة » الطبية التى يدفعها صديق البطل أو طبيبه ليحيله الى الصيدلى الموهوم فيعطيه مرهما من التناسى استخرج من صيدلية الآمال. ولنصرف النظر الآن عن غثاثة هذا التعبير لنشرح كيف يستحيل ان يكون التناسى صادرا عن الأمل، فعلم النفس — ايها الجاهل به! — يثبت ان الأمل قوة ايجابية عميقة تنظر الى الامام لا الى الخلف، وتوحى عواطف الايجاب لا عواطف السلب، والتناسى انما هو شىء سلبى يتعلق بماضى الحياة وذاهبها، لا بمستقبلها، فهو يتولد من وشائج الأفكار الماضية،

وما يلوح فيها من بوارق الذكريات الجميلة ليس الا ، والتناسى فضيلة ، ولكن ليس كل الفضائل وليدة الأمل ، وهو خلق رزين ، أما طبيعة الأمل فهى تمت الى التوثب والطموح ، ومرجع التناسى بعد هذا كله الى خلق الصبر أو إنكار الذات ، واين هذان الخلقان من الأمل ؟

ومثال رابع . . . ولكن حسبنا تحليلا للفق من القول لا يستحق هذه العناية منا ، فإن بقى بعد هذا زعم لزاعم من المكابرين فلينطح من شاء رأسه بما شـــاء ! . . . .

٤ — المفاجأة البشعة فى انتقال الأخلاق

هذا شىء وقع فيه صاحب الحكاية من غير أن يقدر عنان عقله على الابتعاد عنه ، فالعقل والذوق كافيان للتنبيه الى أمر فظيع كهذا ، ولا دخل هنا لعلم النفس ولا لغيره من العلوم ، فالصغار من غير الدارسين يفقهون بالبداهة أن هذا أمر ليس مرجعه علم النفس وهو لا يغيب عن فهم اى انسان كان له حظ من الإدراك ، حيث يعلم ان رجلا تتناوبه الهموم الى درجة ان كون لنفسه منها جانبا كبيرا وأصبحت هى ميزته التى يعرف بها لا يمكن أن تنقلب أخلاقه فجأة — انقلاب البهلوان — الى المرح الواسع و « الابتهاج الروحى » إلا ان يكون فلتة من فلتات الطبيعة أو رجلا يعالج الحياة المريضة الشاذة بين الزنوج الذين لا يعرفون معنى الحياة ولا يفمونها إلا من جانب الشعوذة والمفاجآت .

ولعل الملفق يزعم ان الانتقال كان تدريجيا ، فإن الرجل المريض اقتنع ثم وصل الى « الصيدلية » ، ثم أخذ يعمل على الإقلاع عن عادته فى الكآبة فهذا لا يزعمه إلا صغار الأدمغة وفارغوها الذين لم يتعلموا بعد أن للعادة طبعا قاهرا ، فكيف بالطبع نفسه ؟ ومدار حديثنا هنا عن هذا العمل على الإقلاع كيف حصل ! وليس فى الأقصوصة المنقودة ما يفيد حصوله أو يشير اليه .

٥ ــ خلوها من الخيال الممتاز

يقول صاحبنا إن « هذه القصة امتزج فيها الخيال بالواقع ، ونحن نسأله قبل أن نعلمه فقد مللنا تعليمه ، ما هو الخيال ؟ ونتحداه أن يجيبنا اجابة مقنعة وإلا فعليه أن يتلقى الدرس عنا فيما بعد ، ثم ما هو الخيال الممتاز ، الذى ننكره عليه ويدعى هو وجوده قبل أن يتبينه من كلامنا ؟ ثم ليطبق حكايته الهالكة على ذلك وإلا فسنصليه نار التقريع جزاء عجزه وتجرؤه على المحال مما تعثر فيه قدماه !

٦ ــ البلى والبرود والتفاهة

درس فى اللغة والفن :

(١) البلى ــ هو الإخليلاق والعتق « سواء فى التعبير أو فى الفكرة »

(٢) البرود — هو عدم تأثير الأثر الفنى على النفوس .

(٣) التفاهة — هى الحقارة فى اللفظ أو المعنى أو الموضوع .

فى الحكاية عتق بين مرجعه نقص دراسة مؤلفها ، فهناك الحشو والتكرار لكلمات وجمل لا معنى لها ولا داعى لتكرارها . انظر الى أول جملة يفتتح بها الحكاية وهى قوله « كان حريصا على تسجيل آلامه ونقش احزانه » فما هو نقش الأحزان إن لم يكن معناه موجودا فى تسجيل الآلام لا سيما فى موضوع كهذا ؟ وهل هذا يصدر إلا من نفس لها أتم الصلة بعصور انحطاط اللغة ؟ وفى الحكاية برود يرجع إلى ضعف قوتها الفنية ، فجملها مهلهلة وموضوعها فاتر يقرؤها القارىء للتسلية فلا يلتذ حتى بالمتعة البسيطة المرجوة من التسلية ، التى تؤديها أقل حكاية أو نادرة مما ينشره تلاميذ المدارس الابتدائية فى باب الفكاهة من الجرائد السيارة ، وفى الحكاية تفاهة تتجلى فى حقارة مغزاها ، اذ ما ذا يكرث القارىء إذا انقلب رجل الحكاية فرحا مبتهجا — وهذا لا يكون كما أسلفنا — بعد انطباع نفسه على الألم والانكماش

الرد على زوبعة مضحكة

لقد طال سكوتنا على هذه الفئة من المبتدئين فى مزاولة الأدب، فظنت أننا إنما نسكت عنها عن رضى لما تنتجه أقلامها الضعيفة، وبلغ الغرور فى الادعاء عند بعض أفرادها إلى حد الظن بنا أننا انما نسكت عنها خشية من تلك الأقلام التى لا تعرف غير الأدب السقيم وعرفانا بها، وطال بهم الظن فى المسألة حتى تناولنا بالنقد قصتين لفقهما أحدهم من نزلاء المدينة طبعت إحداهما ككتاب بعنوان « التوأمان » ونشرت الأخرى فى أحد أعداد هذه الجريدة بعنوان «مرهم التناسى» فصوبنا معول الهدم إلى هذه فدكت أركانها، ومسسنا بمبضع الجراحة هاتيك واعدين بمعاودة الكشف عن سخافة موضوعها وضعف أسلوبها وخطأ تفكيرها وفساد فنها فى فرصة تسنح لنا فكلتا القصتين إنما يمثل أدب الصبيان، فقاموا وقعدوا وصرخوا وفرحوا فى مستقر نفوسهم، إذ وهموا أنه لو لم تكن القصتان ذواتى شأن فى عالم الأدب لما تقدمنا إلى نقدهما، ولما كان نصيبهما عندنا غير الإهمال، وإذن فنحن أحسنا صنعا إلى الأنصارى ملفق القصتين من حيث اننا لم نقصد ان نحسن اليه الصنع برفع شىء لم يرفع الله قيمته، ولكنا كنا نقصد اصلاح الفن الأدبى الحجازى وإرادة النقد لذاته ليس غير، جريا مع الثقافة التى نضطلع بأعبائها وذوق النقد الذى يمتزج بتفكيرنا، ثم سواء لدينا بعد ذلك أيهبط ثمن الكتاب الذى ننقده أم يرتفع فى ميزان الرواج التجارى وتباع منه أربعمائة نسخة فى الهند والجزائر وغيرها - كما قال أحدهم عن قصة التوأمين - أم لم تبع نسخة واحدة، فقراء هذا النوع من الأدب الضعيف لا يحصون.

وغير عسير على أبسط مفكر فى البلاد العربية أن يضحك ساخرا لما عمد إليه ذلك النفر الضئيل فى المدينة من الزج بأنفسهم فى صف الكاتبين والمفكرين فى الوقت الذى لم يحسنوا فيه « القراءة العالية » بعد قفزة غير محمودة الأثر ولا مقبولة المظهر، ولكنها تغرى الباحث بالاشمئزاز من غثاثة بلغت حدها الأقصى ، ولوائح تنبىء عن التلاشى السريع ، ودعوى واسعة المساحة عريضة الأكناف ستعلن عن نفسها عندما يبدأ هوى هذه الأدمغة الجوفاء إلى بؤرة الافلاس العقلى ، وبؤرة لا تجد فيها حين فحصها الا شيئين اثنين ليس غير: شباب جاهل لم يبلغ من الدراسة مبلغ الثقافة والتميز ، يندفع مع الصائتين من غير روية ولا اناة ، وكهولة ضيقة العطن تحمل رجعية الأفكار مختبئة تحت ستار كثيف من قشور العلم البارد المدعى، ومظاهر الوقار المصطنع تخدع الناشئين هناك بمؤلفات مهلهلة مسمومة تنشر فيهم باسم الأدب الذى يتعشقه الشبان ، فلا يكادون يرون رواية ـ مهما بلغت من الانحطاط ـ ألفت وكتب على زاوية غلافها العليا من اليمين أو من اليسار : « أول رواية صدرت بالحجاز » حتى يخلبهم ذلك البريق الزائف فيندفعون اندفاع الظامىء خلف السراب فإذا هم أمام قيعة تعوى فيها ذئاب الخواء والنضوب ، لا رحمة فيها من أدب ناضر ، ولا جدة ولا رواء من علم صحيح ، وإذا بهم وهم يقرأون هذين التوأمين أمام تل لاقيمة له فى ميزان النقد ولا ميزة فيه إلا ترديد أقوال بالية لا تلبث أن تهب عليها ريح الغربلة والمحاسبة حتى تهوى بها إلى مكان سحيق أو واد من العدم لا مبعث منه .

وهمسة نتطوع بها فى آذان النشء الكريم من إخواننا شباب المدينة المنورة النابت ، وهى ألا ينخدعوا فى وطنيتهم الحجازية العربية التى يجب

ألا ترضى لنفسها التدهور إلى مجار تجرى فيها مثل هذه المنتوجات العقيمة من الأدب ، التى إنما صلتها بتمبكتو ألصق منها بهذا الدم العربى الحر يجرى فى عروق أبناء « الأنصار » الحقيقيين فيكون تفكيرهم صافيا وهاجاً يفيض عليه أدب النبى صلى الله عليه وسلم وآداب صحبه الماجدين فلا يلبث أن يبنى صرح النهضة الفكرية فى المدينة على أساس قويم يسقط دونه ما تقذفه شواطىء أفريقيا وصحاراها من عقم العقول وفساد الحاصلات ! الحاصلات.!

ثم نكر ـ بعد هذه الهمسة ـ راجعين إلى بيان ما هو السمو فى الأدب الذى أعيى بعض شبان المدينة نيله فعزوا انفسهم بترديد ذكره ومطالبتنا به فنقول لهم إنه هو الفن الناضج الذى تنشئه دراسة صحيحة واطلاع واسع وملكة خصبة لا يشوهها العجز ولا يهددها الضعف والاضمحلال، هو القدرة الهائلة على امتلاك ناصية التعبير الجليل الذى يضع الجمل مواضعها الواجبة من أساليب الكلام ، ويحملها أحمالها الصحيحة من جميل المعانى ومتفوق الأغراض المكينة التى يكبو دون غايتها أدعياء الأدب وقصيرو المدى وسماسرة الفن ومنقصو العقول ؛ هو الاتزان فى قوى النفس وملكاتها ، هو إدراك الفرق بين ملكة الخيال وصناعة الاستعارة العتيقة ؛ هو الاحساس الواعى فى فن الرواية الذى يميز خصائص القصة تمييزا جيدا ، ويعرف ما هى الأسس الفنية التى إن أخطاها أو جهلها كاتب الرواية فإنما يخطىء أو يجهل حقيقة الفن برمته ، وفى غير فن الرواية الذى يستلزم من قضايا الجرى على قواعد الحقيقة غير ما يستلزمه ذاك من الجرى على قواعد المثل الأعلى فى الحياة التى تمثلها القصة ، إذ القصة كما قلنا تتطلب أن يحدد لها الكاتب موضوعا اجتماعيا قويا أو يديرها على الدعوة إلى فكرة أو خلق أو عقيدة يراها هو ويشاركه

القدر الكافى من القراءة فى اعتبارها شيئا له صلة تامة بالمثل الأعلى الضارب فى صميم الحياة الانسانية قبل كل شىء .

هذا هو سموالأدب ، فليطلبه فى مواضعه شبان المدينة الذين لا نحب لهم أن يتأثروا بضعف عبد القدوس وتهويشه ، والذين يجب عليهم أن يصفعوا هذه القصة وما إليها من حثالة هذا الذهن الجامد الباب ، وأن يرموا بها إلى مهواة من مهاوى الجحيم حيث تتكدس رمم الأفكار البالية والاوهام الخليعة والتسكع فى التعبير المضحك والمعنى المزدهف ، وحيث يتطهرون فى نهر الوطنية العربية الحجازية التى ما زال يكيد لها هؤلاء السود المسخرون ممن لايعلم إلا الله مبلغ صلتهم بالأبالسة والذين يريدون أن يمتطوا اعجاب شبابنا الجاهل إلى حيث يتسلقون فى الأدب الزائف درجة الشهرة الكاذبة فيمثلون بين الشبان أدوار الحواة والمشعوذين لا خدمة للعلم الذى هم أبعد أبناء آدم عنه ، ولا رغبة فى الفن الذى تنطمس معالم الدنيا قبل أن يتعرفوا إليه ، ولكن قضاء لغرض يضؤل ويعظم حسبما هو فى نفوس أصحابه من الطموح الوضيع .

ثم نجيب ذينك الكويتبين المخدوعين اللذين ركب عبد القدوس الشنقيطى كاهليهما للدفاع عنه والنقيق معه عند أقدامنا نقيقا لم يكن له من قوة الصوت ما يوصله إلى أسماعنا ، بأن الأدب فى غير ما أتياه وعنيا به من الموقف الرفيع الذى وقفاه ، فهما يزعمان ـ ويزعم مسخرهما على الأصح أننا تحاملنا على شخيصة المنقود ، ولو علما أن هذه الشخصية التى يفتحان فمهما باسمها أضأل شخصيـــة فى تقديرنا لا حساب لها عندنا إن حسب

المسكينان لها الحساب ، ولسنا بمغرورين بما تبديه من أشباح العلم الأبتر المدعى الذى ليس آفته النقص فحسب ، ولكنه المسخ والتدهور فى صميم حقيقته ، بل إنه هو الحيلة صرف فى ترقيعها الجهد الجهيد وخرج منها صاحبها بما فضحه لدى الكاتبين ، وسينفضح أكثر كلما بدا له يوما أن يرفع رأسه فى مجال الفن الذى نجزم أنه لن ينال منه حتى المقدار الذى ناله من سبقوه من بعض شبان المدينة الحديثين كعبد العزيز ضياء الدين ، الذى نتحدى مقدرته بأن يجاريه فى مثل قصة «الابن العاق» فإنه يجب أن يتصاغر عبد القدوس هذا أمام شبان كمن ذكرت لم يخرجوا عن أنهم مازالوا فى مستهل طور التكون الفنى ولكنهم فاتوه فى إدراك حقائق الفن ومراميه .

أما ما ظنه فينا الهزأتان من نقص العلم فإنه لا يتاح لأمثال هذه المدارك الكليلة أن تحس بروعة العلم الصحيح ، وحسبها مسائل ضيقة من قشور يسميها هم وأمثالهم بالعلم فى المدينة ، وما لهـــذه المدارك والعلم والأدب والغيرة التى قدرها لنا قبلهم من ليس له بنا صلة من خارج جزيرة العرب ممن يحملون أضخم الألقاب العلمية والاجتماعية ؟ وأقرب مثل ما نشر عنا فى الاسبوع الماضى بقلم صاحب العزة العامرى بك نقلا عن مجلة النهضة المصرية ، فإنه قذى فى أعين أعماها الجهل والتعصب والطيش ، ولا نزيد أن نوسع الشقة فنستشهد بما نقله عن كتابنا « خواطر مصرحة » العلامة العبقرى الدكتور طه حسين فى أحد أعداد مجلة الهلال قبل أشهر مضت فى مقال افتتاحى عنوانه « الحياة الأدبية فى جزيرة العرب » ، ولكن هؤلاء لا يؤمنون وأنى بالإيمان العلمى أن يلج إلى صدر المتعصب الغر الذى لم يترب تربية علمية ولا أدبية إلا فى حد سىء معروف .

وآخر سهم نصميه إلى هؤلاء الضعاف المرزوئين فى عقليتهم هو إجابتنا عن رميهم لنا بالتستر خلف الاسم المستعار خجلا ! بأننـــا ما عرفنا الجبن قط ممن يقام لهم وزن ، فهل من المعقول أن نتنزل إلى الجبن أمام حشرات الأدب ؟ على أننا قد صرحنا باسمنا مرارا فى ذيل هذه التأملات حتى لم يبق من لم يعرفنا فى طول البلاد وعرضها وخارجها .

وهانحن أولاء نعيد الوعد بأننا لا نزال عازمين على نقد قصة التوأمين وغيرها ، ونقد كل مايستجد بعدها من ألفاق تنشر باسم الأدب ، رغم مارمى به الدهر تلك القصة من الانزواء والموت ، تقريعا للسخفاء الذين أودى بهم الوهم أنها شىء له معنى فى عالم الأدب الصحيح ، وإن النقد الصارم لبالمرصاد لا سيما لمن يخفيه النقد .

الفذاذة فى الشاعرية

لكل مظهر من مظاهر العقول البشرية رسالة يحملها الى العالم يسلك فى سبيل أدائها مناهج واضحة لا تختلط بغيرها إلا لتزيد الأداء قوة ، فللعلم رسالة ، وللفن رسالة، وللفلسفة رسالة ، وإذا كان الشعر أروع الفنون الجميلة وأعمقها أثرا فى النفس الإنسانية وألصقها بالحياة كما يقول أحد فلاسفة الانكليز ، فإن رسالته الى العالم إذن هى رسالة الفن نفسها وما رسالة الفن إلا إنماء ثروة الحياة فى النفوس، وشعل مصباح الفكر الإنسانى،وشرح حقيقة الجمال ، والصعود بالآدمية الى أفق سام من آفاق الخلود .

أو ليس الشعر فنا دفاقا؟وهو أشبه الأشياء بالنهر المنبعث بقوة وصفاء؛ منبعه ومصبه الحياة ؟ ومقياس الشعر الصحيح أو الشعر الحى هو أن يغمر نفسك بالإعجاب ويحفزها إلى افاضة الثناء على الشاعر حين تقرؤه أو تفيض اليه وأنت مسترسل فى عالم آخر من عوالم النفس التى تقدر القوة والبراعة وتؤمن بعظمة الصدق وتأثير الفن، وهو ذلك الذى يستشف الفكر من وراء نغماته وموسيقاه أجمل معابر النفس الإنسانية إلى آفاق الكمال البشرى القريب من عرش الله ، وهو ذلك الذى يعطيك نظرة خاصة إلى جمال الكون وجمال مافيه، وبتعبير موجز هو ذلك الذى يؤدى رسالة الفن غير منقوصة كما تشاء عبقرية الشاعر وإحساسه بالحياة ومافيها من كنوز، وكما تشاء التفاتات نفسه ويقظة عقله إلى حقائق العالم وطبائع الأشياء،وهذا هو الشاعر الفذ .

نعم هذا هو الشاعر الفذ ، وهذه هى معالم الفذاذة فى الشاعرية تتلمسها فى كل شعر يصنع بك ما قلناه آنفا أو ما يقرب منه حتى يدعك تستشعر قوة الحقيقة وروعة التصوير واخلاص النفس فى اداء رسالة الشعر . أما ذلك الشعر الذى تقرؤه فتمضى فيه وأنت أنت لا يستهويك شىء من فكر ولا يلج إلى نفسك احساس جيد بمظهر من مظاهر الحياة ، ولا تحس أن فيه روحا فعالا يملى عليك الحقيقة أو يدنيك من الجمال ، وأما تلك الشاعرية الباردة الميكانيكية التى لا شأن لها بغير الاوزان والقوافى والمحاكاة واستخدام ألفاظ اللغة تبعا لنواميس القافية ورنة النغم ومساوقة الوزن ليس إلا وليس بعد هذا من وراء نا تجها إلا الخواء والشعوذة وتلفيق المعانى العارية وتكريرها والجرى وراء المبالغة وشتى الاحالات التى تفسد جو الأدب ، ثم تلك الآداب الغثة التى لا فكرة فيها إلا إبداء ثرثرة يحسبها قائلها زينة النفس الشاعر وأثر جمال الفكر الإنسانى ، وتعالت النفس الشاعرية ان تلفظ بالترهات وتنزه جمال الفكر الإنسانى ان تكون آثارة سفسطة الأقاويل الزائفة ، أقول أما تلك وهذه من كل أنواع الهرف المصطنع فإنما هى آداب ميتة وإن خلع عليها الكثيرون ألقاب الهول والتفوق ، واعتبروا قائليها أفذاذا وعباقرة بغير أن يقيموا وزنا للفذاذة الفذاذة والعبقرية كأن الفذاذة والعبقرية عند هؤلاء ليست إلا شيئا عاديا مباحا يتناوله المرء بطرف اللسان ثم يمنحه من شاء وشاءت له سخافة النظر أن يمنحه إياه بمثل ما يعطى الواهب المقلال أبسط الأشياء لمن يصادفه فى طريقه أو بمثل ما يستعمل الإنسان ألفاظ المجاملة مع الآخرين .

أدب التقليد

لا ريب أن معظم ما قرأت من آثار الآداب العربية بعد العصر العباسى هو آداب تقليدية وصور منسوخة من أصول قديمة لا صوت فيها للعقل ولا لون للابتكار ولا مسحة للعواطف الحارة التى تنبع من قلب الشاعر فتفيض على قلمه شعرا حيا يستوقف المفكر أو مؤثر الابتكار فى الفن . لا ريب فى ذلك وإن حاول بعض المقلدين أن يزيفوا هـذا النوع من ذاك الأدب الغث الذى لا تقوم عليه نهضة أمة ، وهذا بديهى ، والذى لا يسمح للأفكار الحرة أن ترى فيه صورة الحياة القوية والذى لا أدرى — وربما أدرى — هل كان أصحابه من ذلك الصنف من الأدباء يفهمون أن الأدب روح عظيم يسرى فى أذهان الأمة فيرفع درجة تفكيرها ويجدد فيها نشاط النزعة إلى النهوض فى اتجاهات السير البشرى ، ويهز منها جوانب النفس للقيام بما خلقت له من الأعمال العالية المتشعبة ، ويوسع فيها دوائر التفكير الضيقة فتنظر إلى الأشياء بعيون جـديدة ، وبالأحرى بعيونها الطبيعية لا بعيون أسلافها ؟

أقول هل كان يفهم أولئك الأدباء الناسخون هـذا المقدار فى فن الأدب ، وأن هـذه مهمته ، وإنى إلى جانب السلب أميل منى إلى جانب الإيجاب ، فأستطيع أن أقول إن تلك الأمم التى كدسها التاريخ أكواما من البشر لم يكن يخطر على أذهان أفرادها الذين كلفوا أنفسهم مؤنة الأدب أن الأدب فن حى وخاز مؤثر يغرى الأمم بالاحتفاظ بالحياة العالية

ويدفع بالأذهان إلى الاكتشاف والامتزاج فى نظم الكون . وإلا فأين نرى موضع تلك الفكرة فى آدابهم نظما ونثرا ؟ وأجزم انه لم يكن حادى الأديب إلا محاكاة العرب والمولدين ومن بعدهم ، وهو إلى زمان قريب كانت هذه خطته الساذجة ، وحسبك أن تقرأ للبكرى قوله :

أديار مى تذكر فدموع عينك تقطر

ولم يكن فى الحياة التى تحيط بناظم هذه الابيات ما يشبه هذا إلا التصور، فالناظم يعيش فى مصر فما له وديار مى ... لولا التقليد الأصم لشعراء العرب والمجاراة العمياء للأسلوب الفكرى المتمثل فى أمثال قول زهير بن أبى سلمى المزنى الجاهلى :

أمن أم أو فى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

وفى ما يشبه قول طرفة فى مطلع معلقته :

لخولة أطلال ببرقة ثمهد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وفى ما يجرى مجرى قول البوصيرى مثلا :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من إضم

على أن نفس هذا البوصيرى الذى قلده صاحب البيتين المتقدمين هو مقلد أيضا لما ذكرنا من الأسلوب الجاهلى . فلم ياقوم هذا الركود والتعطيل والإسفاف إلى مالا يرضى الطبيعة؟ نحن فى غنى تام عن هذا الهراء وذاك السخف.

والتهويت إلى منحدر النفس المستسلمة، فهل لا تعرفون كيف تكونون شعراء إلا إذا قلدتم العرب فى كل شىء، وعشتم بأفكاركم تلك العيشة البدوية فذكرتم ديارمى و«منعرج اللوى» و«جآذر رامة» و«ظباء المنحنى» و«سفح العقيق» والنقا والخزامى ،وسألتم عن الركب ولا ركب،واستوقفتم حادى الأظعان ولا أظعان ، وندبتم الديار ولا ديار ، واستـــذرفتم الدموع ولا دموع ؟ أو تقمصتم حياة العباسيين فعاقرتم فى الشعر الصهباء، وصاحبتم الدنان، ومدحتم ورثيتم، وبعبارة موجزة درتم حول التاريخ تترسمون خطا أولئك،وتسمون أنفسكم أدباء الوقت ونوابغ الشعر، وتكلفوننا الإعجاب الميكانيكى بما تقدمونه للثقافة الأدبية من الحثالات ، ويعلم الله ان لاشىء من هذه الآثار الميتة يلامس قلوبنا فنعجب ، وإن تلك إلا قصارى الأفكار المكدودة والقرائح المتهافتة فهى فى جانب والشعر فى جانب آخر .

وبربك قل لى أيها القارىء : أى شعر حى تراه من قول شاعر عصرى :

أنادى الربع لو ملك الجـوابـا وأفـــديه بنفســـى لو أجابا

اليس كل ذلك إلا وقفا قسريا لسير الأذهان نحو حيـاتها المنتظرة ؟ وهدم أهوج لهيكل الأدمغة التى يجب أن يتولد فيها حب التقـدم والتحرر والتأسيس ؟ وتسميم للعواطف والقرائح لا تجيزه قوانين الطبيعة ؟ ألا نزال حتى الآن فى خرائب بابل حيث تتجاوب أصداء الاهوية وتتناعق غربان الكهوف،وتعزف جنان الاوهام ؟ أم لا نزال حتى الآن كما كان آباؤنا نطارد « وحش وجرة » و « نقطع واديا كجوف العير » و « نضرب أكباد الإبل »ونقصد فلانا وفلانا من ملوك العراق وأمراء الشام وعظماء الحجاز؟ أم لا نزال حتى الآن نزور ليلى فى خبائها خلسة ، ولبنى بين بيض السيوف

ومشتجر القنا، ونهادى دعدا بأطباق التمر، ونعاتب أم عمرو لأنها صبأت عنا الكأس، وكان الكأس، مجراها اليمينا ؟ لكل أمة دور انحطاطها الذهنى ودور انتعاشها ثم صحوتها، ونحن وقد مضت أدوار علينا كنا نتخبط فيها بين الانحطاط الذهنى والانتعاش المشلول قد جاءنا الآن وقت أظنه هو المدى الفسيح الذى يجب أن تنفسح فيه منا اليقظة الذهنية وتصحو معها عقولنا وقلوبنا ،ونستخدم دم الحياة بحرية التفكير، وننظر بأعيننا الطبيعية إلى الأشياء أو نخلع فكرة الأدب إذا كنا لا نعرف وظيفة الأدب .

هذا ما عن لى من الملاحظات على الأدب الشائع فى أقلام شعراء شهيرين يشار إليهم بالبنان فى عصرنا الحاضر، وهذا ما يدعنى أسائل نفسى مرة أخرى: هل جمد الذكاء فى رءوس شعراء العصر، وهم نوابغه القديرون؟ أم هل يستهين هؤلاء النوابغ بقوة الابتكار فيدعونها تنسحق هذا الانسحاق الشائن بين خرائب بالية من الأساليب والافكار ؟ أم هل يتصورون أن الادب ملهاة من ملاهى الحياة يجوز أن تحفر فيها ذمة الفهوم ؛ وهل يصح أن يكون مثل هذا الادب صورة صادقة لأفكار أبناء هذا العصر وحياتهم ؟ ؟ كلا ! فأما المدح فى الشعر فإن لنا فيه فلسفة تتلخص فى أن الشاعر الذى كل نسجه مواجهة الآخرين بالملق والتمديح ليخطىء تماما وجهة الفن الثابتة، ويتجافى عن جوهر الشعر الذى يرفع من شعور الأمة إلى مستوى راق من اللياقة أو التفوق . فالمدح والتمجيد والحذلقة ليست من المقاصد المشروعة فى مذهب الشعر الحى والفن البانى المدعم ، إذ كل شخص عادى أو أقل من العادى لا يعوزه أن يقول لكل واحد : أنت الرجل الذى ليس مثلك رجل، وأنت الذى ينعدم النقص عندما يقترب من ذاتك العالية

المقدسة ، وهذه المعانى وأمثالها هى التى يقدمها الخادعون والغشاشون عادة إلى من يريدون أن يموهوا عليه حياته ويتركوه فى خضم من الخيال يغطى موضع اليقظة والتنبه من احساسه، وإذا نظرنا إلى الفصائل الحيوانية فإننا نرى أحقرها وأتعسها وأقلها قيمة هو الذى يتمسح بالإنسان ويتملقه ويتحكك فيه ابتغاء جزاء ضئيل بينما العظيم الممتاز من هذه الفصائل لا تصدر عنه إلا القوة والاعتزاز والصراحة والمقدرة ، وقد نبت فى علم النفس أن هذه الصفات الخلقية الأخيرة هى التى تنتج الطيبة والإخلاص والوفاء والشهامة ،بينما لا تنتج صفات التمسح والتحكك والحذلقة والاتضاع إلا الخبث والرذيلة والحسد والنذالة والغدر.فالأسد القوى الصريح الشجاع العزيز لا يغدر ولا يخون ، ولكن الهر المستخذى الوضيع الجبان ، يسرق ويخاتل ، ويخرج برازه فيدفنه .

والأسد لا يطلب منك الإحسان والمكرمة ، ولكنك إذا فاجأته بها قابلها منك بأحسن ما يجب ، واحتفظ بها وجازاك عليها جزاء الشهم الأبى القادر ، أما الهر فإنه يتسول إليك فتطرده فإذا قدمت له شيئا التهمه وذهب ينتحى جانبا من المجلس يضطجع فيه وينوم .

وفذلكة الأمر عندنا فى الأدب هى أن الادب ليس بلهو أو زخرف من القول تزجى به أوقات الفراغ وتراد تحت اسمه الأفكار الكليلة على التمرس ، والذكاء الرخيص على الظهور الأجوف ، ويطلب به ان تتحرك الأشداق بالقراءة ليس إلا ، وأن تزيغ النواظر بين السطور ، وان تتسلق الشخصيات الضئيلة إلى مراكز الأدباء البارزين بكتابة السطر لاصلة بينها وبين النفس المحسة والعقل المتبصر والقلب الفياض إلاما يدس بين

سطورها من كلم بارزة ضخمة لا رابطة بينها ولا وثاق ، كلا ليس الأدب شيئا من هذه المظاهر الصماء ولكنه الشعور الممتاز !

وإن شئت فقف هنا لا تنقص ولا تزد ، ولكنك جدير أن تعرف ان هذا الشعور الذى أقصده إنما هو شعور عبقرى مملوء لا ركركة فيه ولا تردد ولا عماية ، بل قوة نافذة ماضية صريحة ، ثم من وراء هذا الشعور تعبير مصور قدير يتعالى عن الطبقة التى تشارك الدهماء فى مداركها وفى التفاتات أذهانها .

الأدب الكاسد

كنت فى مزدحم الناس يوم أن احتشد الشعب فى ساحة الثكنة لملاقاة جلالة الملك عند رجوعه من نجد إلى جدة فى إحدى جيئاته إليها ، وكنت فى فناء السرادق الكبير الخاص لاستقرار جلالته ، وكان لغط الدهماء والمحتفلين واكتظاظ المكان بهم على غير نظام حائلا بينى وبين رؤية الملك وسماع الخطباء الذين حيوه . بالرغم من تلك الحيلولة استطعت أن أسمع بعسر بعض أقوال الخطباء وان كنت لم استطع الاحاطة بكل ما قالوه . وفى ذلك المعترك الفوضوى، وبين تلك الجثث المكدسة حمل الأثير إلى سمعى كلمة « القدح المعلى » فى إحدى خطب الاحتفال ، فأرهفت أذنى وفهمت أن مدار الجملة التى نطق بها الخطيب على أن الأمة الحجازية أو العربية نالت أو تنال بفضل جهود جلالة الملك المفدى ابن السعود شأوا فائقا فى الحياة سماه الخطيب « بالقدح المعلى » كما كان يسمى العربى قبل الإسلام إحدى خشبات الميسر، وهى التى لها الأنصبة الفائقة من لحم الجزور عند الاقتسام . فالقدح المعلى إذن خشبة تاريخية لم ولن تنالها العرب على يد جلالة مليكهم، ولا هم يريدون أن ينالوها فى زمن من أزمان الحياة . القدح المعلى خشبة عربية مات عنها أصحابها وخلفوها إرثا لأبنائهم ، وكان الوصى الحامل لذلك الإرث جيش من العلماء والأدباء أفراده الميدانى والزمخشرى والجاحظ وبديع الزمان والخوارزمى وأبو على الفارسى وابن جنى الخ . فعلى يد هذا الجيش وصلت الينا متروكات العرب، وفيها « القدح المعلى »

و « القدح المنيح » و « جدح جوين من سويق غيره » و « أطرى فاتك ناعلة » و « وجد تمرة الغراب » و « أعز من بيض الأنوق » و « وشيعة فيها ذئاب ونقد » و « عش ولا تغتر » و « أفرغ من يد تفت اليرمع » وما إلى تلك التعابير التى ليس فيها من جملة تحمل رمز حياتنا الحاضرة ، وإنما تصور لنا عيش أولئك العرب فى باديتهم وهم لا يتخيلون إلا الميسر والقداح والسويق والجدح والاطرار والانتعال والتمر والغراب ، ووشائع الغنم ، وفت اليرمع وقت الفراغ ، ومراعى الإبل ، ومايمت إلى تلك بنسب المشابهة أو الجوار ، ونحن عرب فى اللغة فقط ، ولسنا عربا فى المعيشة والتفكير والخيال ، لأن لنا اليوم حياة وثقافة وأدبا غير حياة وثقافة وأدب العرب الأولين ومن من الأمم تحيا اليوم كما كان يحيا أجدادها بالأمس ؟

لقد تطور كل شىء فى الحياة ، ولا يفهم الرجعيون أن التطور هو الانسلاخ من الماضى بما له وما عليه ، وإنما التطور هو المشى برزانة واهتمام فى ميدان الحياة الفسيح للوصول إلى أرقى حالات الكمال الحر ، والكمال الحر هو النهاية المخيفة التى يهرب من طريقها الرجعيون أنصار « القدح المعلى » « والجدح » و « السويق » ولكنها بالرغم مما يصنع الرجعيون نهاية كل حى حساس يعنى بالحياة وتعنى به الحياة ، وما « القدح » و « الجدح » و « فت اليرمع » إلا أوراق لا تجدى فى مكتب الحياة قد استملتها أفكارها ثم مزقتها وألقت بها فى سلة المهملات ، والويل لمن يلتقطها ثانيا . أنا لا أنكر فصاحة الأمثال العربية ، ولكنى أنكر صلاحيتها فى الأدب الحديث ، وما قيمه الفصاحة إذا جاءت فى ثوب لا يوائم حياتنا الفكرية ، حياة الصور الفاتنة وشتى المبدعات ؟ وما قيمة الطنطنة فى تلك التعابير ونحن نهرب

من وجه الطنطنة والزخرف اللفظى فى الأدب كما يهرب الرجعيون من نهاية الكمال الحر ؟ ورب معترض يتشبث بقشور الكلام يقول إن أرقى اللغات الحية الأجنبية لم تستغن عن الأمثال فأقول : ليس هذا سبيلى ولست لأمج استعمال الأمثال ، ولكنى استهجن فى كل شىء ، وليس فى الأدب فقط ، فكرة التأثر البارد والجمود عند الأشلاء غير الصالحة للبقاء ، فالأمثال العربية فيها ما هو أثرى بحت يصور حادثة خاصة لا يوجد بين أجزاء حياتنا جزء من أجزائها ، وهى حيثما تراها وتسمع بها تجد قائما حولها شبحا من البداوة الماضية بكل ما كانت تحمل من شنان بالية ، وأخبية تحيط بها النوى ، وجذل منصوبة تتحكك بها الإبل الجربى ، وعذق ترجيها حراس الثمار إشادة بمالها من سمو المكانة عند أصحابها ، وإماء حافيات الأقدام أو ناعلات ، حاملات عصى الرعاة ، يهرولن وراء الاغنام ، ثم ما شئت بعد من آثار عيشة الحل والترحال والارتياد فى صحراء بلاد العرب أوحول سد مأرب أو مابين تدمر والفرات .

وليس فى كل ذلك عيب أو نقيصة لولا أن الرجوع إلى ذكره فى الآداب واستعماله كأدب عصرى تعمية على التاريخ ، ودلالة على العجز فى التصرف ، ومعاكسة للخطط الطبيعية المثلى فى آداب الأمم الحية التى تحس بشخصيتها مستقلة . ونحن ألسنا بالأمة الحية التى لها شعورها بنفسها واعتزازها بحاضرها ، أو كما هو الواجب شعورها بآلامها وتصويراتها لتلك الآلام ومعالجتها ، والخوض فى غمار حياة جديدة هى الحياة الحاضرة بحسناتها وسيئاتها ، والنظر فى الأفكار المحتاطة بنا والتى تتكون منها تلك الحياة والعود إليها بالنقد والتحرير واستبقاء الصالح وطرح المتداعى ؟ وبالإيجاز التغلغل فى أعماق الحياة نقدا وفهما

ومعالجـــة ، فالأدب نقد الحياة كما يقول كبار المفكرين ، أو على الأقل ألسنا بالأمة التى لها شعور وإرادة يحفزانها إلى إرادة الحياة ؟ نعم إن اللغات الحية لم تهمل أمثالها القديمة ، ولكن أحرار الأدباء الحساسين فيها يلقون عليها صبغة الحياة الجديدة فى أقوال تسرى فيها روح الأمة وتلابس حاضرها بدقه وقدرة ، ونحن لا نطلب من الأدب العربى زيادة على ذلك القدر.

نظرة عامة فى السياسة العالمية (١)

يلاحظ المتتبع لمجرى تقلبات السياسة فى هذه الأيام ، وتطورها — طردا وعكسا حسب ما يصادفها من ظروف الحوادث والمناسبات — أن فى العالم المتمدن ، أو بعبارة أخرى: أن فى أذهان ساسة الغرب ومفكريه فكرتين أساسيتين تسودان التفكير السياسى الأوربى وتكيفانه بما يرى المطلع ، وتزجان بساسته إلى التصادم والتوازن تارة، وإلى التلاؤم والتساهل تارة أخرى . وان فى تينك الفكرتين سياستين هما السعى إلى السلام العالمى ، والتسلح لحفظ المكانة الاجتماعية ، ومن العجيب بل من المدهش جدا كما يلوح مبدئيا ، أن ترى أقطاب السياسة فى انكلترا والمانيا وفرنسا وايطاليا ، بل فى أمريكا التى عرفت قبل الحرب العامة بحيادها السياسى وبعدها عن أغوار السياسة وأهوالها ، يلونون مقاصدهم بألوان الحاجة والظرف ، فالقطب الذى يذيع الراديو خطبه السياسية الرنانة فى تمجيد السلام، وتنقل الينا صحف الخارج كلماته الرائعة ومواقفه الجليلة للدعوة اليه لايستحيل عليه أن يقف فى غد ذلك اليوم أو بعد غده موقفا حماسيا مؤثرا يلهب فيه عواطف الشعب ويهيب بأجناده إلى اتخاذ الحيطة الدفاعية وتقديس وسائل الحرب ، ويضرب للقوم على أوتار الوطنية والقومية حتى يستفز مشاعر الأمة ويستثير فيها مكامن القوة و الكفاح، للذود عن حدود الوطن المقدس بحد الحسام وبفوهة المدفع وبأزيز المنطاد إلى آخر ما أبدعته أوربا من ضروب الوسائل الدفاعية .

---

(١) نشرت افتتاحية للعدد ٨١ من جريدة صوت الحجاز الصادرة فى ١٢ رجب سنة ١٣٥٢

والأكثر من هذا دهشة أن يغدو السلام والدعوة اليه ضربا من السياسة العالمية النفعية لا مبدأ مقدسا من مبادىء الاجتماع ، وحقيقة تامة من حقائق الحياة ، كما كان يقول عنه أولئك الأقطاب السياسيون أنفسهم ، حتى لكأنما فكرة السلام فكرة وقتية ينادى بها على الجماهير لقيادتهم إلى مقصد سياسى معلوم ، أو للسيطرة على أفكارهم ريثما يتم أمر قد شاءته هذه السياسة العالمية ، أو لكأنما هذا العالم شىء لا يستحق القداسة المنتظرة من أعمال أولئك الأقطاب القابضين على تصرفات الأمم ، قبضة اللاعب القدير على صولجان البليارد يعبث به فى تلك الأكر المنثورة أمامه على المائدة يبددها يمنة ويسرة ويصرف مسيرها إلى حيث تشاء له مقتضيات اللعبة المنظمة .

ماذا أيها الساسة؟ أيحق للعالم أن يتشاءم فى هذه الآونة لما تبديه الأفكار القديرة المتصرفة فى مصير الشعوب ، وأن يلهو بما قاله رسل السلام ورجال الواجب فى أحيان مختلفة ؟ ؟

الحق « أن السياسة ليست علما موضوعا له أصول ثابتة وقواعد معينة ، بل هى مرهونة بحكم الأحوال ، وأن الوقت يعالج أحيانا مسائل خطيرة تعجز جبابرة العقول عن معالجتها قبل حلول الأوان الطبيعى لحلها ، فالسياسى الماهر هو الذى يعرف كيف يعطى الزمان حقه حتى إذا فعل الوقت فعله عرف كيف ينتهز الفرصة ويستفيد من الانتظار فى الأوان المناسب » .

نعم هذا صحيح ، وهو ما قاله السياسى الالمانى الدكتور « شترزمان » رجل الواجب كما كان يقال له ، وهذا القول على صحته ليس فى مراميه أن تتقلب

المبادىء السياسية تقلب الثعالب ، ولكن من أهم مراميه، ما قاله هذا السياسى نفسه فى حديث له مع أحد الصحافيين: «انى أظن انكم ترون معى أن الواجب يجب أن يقدم على كل اعتبار آخر فى هذه الحياة».

هذه هى الحياة الحقيقية الناصعة التى لا مناص منها لزعيم أو سياسى، فهل انقلب معنى الواجب فى هذه الظروف إلى سعر تجارى من أسعار البورصة يهبط ويرتفع فى غرابة المفاجأة، وشذوذ المقاصد، وغموض المواقف تسميه السياسة بأسماء مختلفة لا ترعى فى سردها لغة الواجب ولا لغة الحياة ؟

ذلك ما لا ندرى تعليله ، ويسوؤنا كما يسوء العالم أجمع أننا ندرى انه أمر جار واقعى يتخبط فى نتائجه كل هضيم الجناح ، فاقد تصريف المصير ، وعسى أن تفاجئنا السياسة العالمية اليوم أو غدا بما يستدل منه على تغيير هذه الخطة أو الصيرورة إلى معنى الواجب الحقيق ، وإلى جعل فكرة السلام مبدأ مقدسا ثابتا لا لونا وقتيا من ألوان السياسة اليوم .

وإذا صح ما قرره علم النفس والفلسفة من أن التلون فى الأخلاق العامة ضرب من ضعف الإرادة وتهافت الملكات الذهنية فإننا نحيط بالأقوياء آمالا جيدة نقول عند تحققها : إلى حيث ألقت أيها الضعف المرير والالتواء الشاذ ، والتهافت المضطرب، ونرحب عندئذ بالقوة النفسية الثابتة التى تتمثل فى سياسة التفكير الصحيح فإنه :

إذا جاء موسى وألقى العصى ... فقد بطل السحر والساحر

فلسطين المنكوبة فى حريتها (١)

قد علم المطلعون على الحـــوادث أنه فى أوائل السنة الرابعة لنشوب الحرب العظمى، أو الحرب العالمية ، صرح اللورد ارثر بلفور، وزير خارجية الحكومة البريطانية فى ذلك العهد تصريحه المشئوم ، القاضى بجعل فلسطين وطنا قوميا لليهود ، ومن ذلك العهد أخذت هذه البلاد تدخل فى دور شقائها الروحى الذى مآله الإفضاء بهـا إلى هاوية من فقدان حريتها وكيانها وتدهورها إلى عالم مظلم من عوالم الانعدام والبعد عن حياة الأمل فى استقلال الوطن وتكوين حرية الذات ، ونيل المتعة النفسية من حياة سياسية مجيدة تحياها الأمم الأخرى .

ولئن كانت نكبة الأمم الشرقية عامة والعربية منها على وجه خاص تعد من أعظم نكبات الامم التى تئن من ويلات الجشع الاستعمارى والضغط غير المشروع فإن نكبة فلسطين بهذا التصريح الذى جرت عليه السياسة بالفعل هى من هـذه النكبات الهائلة فى الصميم ، إذ الخسارة فيها مضاعفة مزدوجة : حرية تفقد ، ووطن يغتصب .

إن فلسطين الشهيدة تنكب من جراء هذه المعاملة بهذه النكبة الهائلة فى كرامتها ووجدانها وكيانها منـذ بدأ ذلك التصريح — أو ذلك الوعد —

---

(١) نشر هذا المقال افتتاحية للعدد ٨٣ من صوت الحجاز فنقلته عنها جريدة الجامعة الاسلامية افتتاحية لأحد اعدادها ايضا .

البلفورى يأخذ فى الظهور عمليا فى خلال هذه السنوات الست عشرة التى مرت عليه من عام ١٩١٧ إلى الآن ، وتعانى ما تعانى من قسوة الظلم المرير والويل المستمر ، ولا من رحمة عند هذه السياسة القاسية ، ولا من نظرة عادلة ينظرها الحكم المسيطر على فلسطين ، فترد اليها روح الأمل وتنعشها قليلا من ذلك الإغماء .

انقضت تلك الصاعقة العنيفة على رأس فلسطين الشقيقة العزيزة والقطر العربى الكريم فناءت بحملها ولكنها جالدت الخطوب وقاومت الإرهاق ومضت تعالج بلاءها فى دأب تاريخى حفظته الأيام وقدسته الشعوب ، شأن المجاهد الباسل الذى يقول مع عنترة « ليس الكريم على القنا بمحرم » والسياسة تعالج خطتها بدورها فى دأب مسىء مؤلم يستفز كوامن الشعور ، سجلته كذلك صحف التاريخ كعنوان على مواقف الغرب نحـــو الشرق المجيد الحر .

إن فلسطين بلاد عزلاء أتيها السياسة المسلحة ، وليس من النبل فى شىء أن يسىء المحارب المسلح إلى خصم أعزل لا يقوم امامه ، وليس يمكنه فى طبيعة التفكير المنطقى الصمود له

ألا فليكن بلفور عدوا للعرب أو لفلسطين ، أو سياسيا نفعيا مجردا لم تزوده الحياة بقلب الرجل النبيل المحس ، أو مخلصا لبنى جلدته اليهود ، اذ هو يهودى صميم ، لا يهمه تحطم الأمل العربى المتمثل فى أمنية فلسطين وغايتها المجيدة ، ولكن ألا يجب أن يكون ذلك كله فى جانب وتكون سياسة الانتداب التى يتغنى الاستعماريون بضرورتها لمصلحة الامم المهضومة فى جانب

آخر ؟ فإذا لم تفعل هذه السياسة التى قيل عنها إنها آخر عصارة الأدمغة التى تربعت على مقاعد عصبة الأمم فى جنيف ما أخذت على عاتقها — فى الظاهر طبعا — تنفيذه من خطط العدالة ، ترى ماذا يقال عن نزعات المتوحشين فى الا سكيمو واواسط افريقيا ؟ !

لقد صرخت فلسطين واحتجت واحتج معها العرب أجمعون ، لأن فلسطين جزء من الجسم العربى المتحد فى كل أقطار المعمورة ، ولكن بدون أن تظهر جدوى حتى الآن لذلك الصريخ وهذا الاحتجاج .

وقاومت فلسطين كما قلنا آنفا وثبتت فى مقاومتها كما يحتمه الدم العربى الحر ، بل الغضب الانسانى الواجب حتى زهقت فى ذلك أرواح أبنائها وأريقت دماء النجبة من شبانها ولكن للسياسة الجبارة أذنا أصمها الوقر .

فجبارة أنت أيتها السياسة عندما تتوالى على مسامعك نداءات الصارخين المستغيثين من أبناء العرب الأحرار المرهقين ، وتكدس فى « دوسياتك » أوراق الاحتجاج والمطالبة بالعـــدالة من المظلومين والمستضعفين ، لذلك ولصمتك القاتل تجاه مظالم العرب :

جبارة أنت أيتها السياسة !

وغير طبيعية أنت أيتها السياسة ، حيث قد أخرجت من ميزان المساواة العادل فى سياسة البلاد التى تشرفين على مصيرها ، هذه البلاد المسكينة التى صبت عليها كوارث الهول من جراء مطالبتها بحقها الصريح فحرمت حتى المظاهرات السلمية ، ورد مكايد التدمير والهلاك عن نفسها فى الوقت الذى

تحسنين فيه معاملتك لغيرها من البلاد الأخرى ، فلهذا الشذوذ والجور غير المحتمل :

غير طبيعية أنت أيتها السياسة :

وأنت أيتها الأمة الفلسطينية الكريمة : ثقي بالمستقبل المشرق ، فإن الله ناصرك وإن العرب كلهم كتلة واحدة تشاركك مصابك وتحتج شدة على ما تجرعته من الغصص والآلام ، وإن التاريخ سوف ينصفك من ظالميك مادامت في الأمة العربية روح الحياة تدب في أفرادها وجماعتها إلى أبد الآبدين .

وإننا لنكتب ذلك لا بريشة الفن فحسب ، ولكن بريشة القلب العربي الدامي المتفطر ، ونرفع صوتنا بالاحتجاج ، مشاركين فلسطين في مطالبتها بحقها الصريح تلك المطالبة العادلة المشروعة ، فما فلسطين بالبلد اليهودي الصهيوني ، ولكنه بلد عربي خالص تكتظ مدافنه بشهداء العرب ورجالاتهم الأقدمين منذ أن كانت الأرض ارضا ، ولن يسمح العرب يوما لصهيون الأجنبي أن يتخذ هذه البلاد موطنا قوميا له ولأبنائه .

الصحافـــة

بحث فى مهمتها ومزاياها وتأثيرها (١)

الصحافة ! أجل نفتتح بموضوعها صحيفتنا فى هذا الأسبوع ، لنقول فيها كلمتنا الصريحة ، ونعطى رأينا للقراء فى جوانب من نواحيها ، فهى جديرة منا بمقال نصدر به فيها هذا العدد من صوت الحجاز ، لكى نبرهن عمليا الرأى العام المحترم أن الحديث عنها خطير حى جدير بالتنويه والاهتمام ، وبأن نضعه هذا المكان من الصحيفة ، فالصحافة ليست بالشىء المستهان به عند الامم التى تحترم أنفسها ، وتكرز لقوميتها بمكانة مرموقة متفوقة تحت الشمس وفوق الأرض ، فلم يهمل أمر الصحافة إلا الأمم المتأخرة التى لا تعنيها الدعوة إلى حضارتها ، أوالتى لا تجد فى أحوالها الثقافية والاجتماعية ما يستدعى الدعوة والإعلان والبحث والمناقشة .

قالت الأمم المتحدة : إن الصحافة هى إحدى السلطات فى الأمم ، وهم يعنون أنها تعد كسلطة البرلمان وسلطة القضاء وسلطة البوليس ، ويعطيها بعضهم لقب « صاحب الجلالة » تدليلا على مكانتها فى الحضارة العصرية عند الأمم الراقية .

وفسر بعض الصحفيين الشعار الرمزى الانكليزى المنقوش على أحد وجهى « الجنيه الانكليزى » والمؤلف من صورة رجل يمتطى حصانا وبيده

---

(١) نشرت افتتاحية للعدد ١٦١ من جريدة صوت الحجاز .

سوط يلهبه به وهو يطأ بأقدامه حيوانا حقيرا ممسوخا فظيعا ليحطم عظامه ويفتت لحمه ويزهق أنفاسه فيفقده الكيان والحياة، ويلاشى شبحه من الوجود بأن المقصد من هذا الشعار هو أن الرجل الذى يتولى قتل هذا الحيوان هو كناية عن قوة الأمة التى تتولى قتل الجهالة والرذائل الاجتماعية والأخلاقية بما لها من روح العزم والنشاط والتكاتف والعمل، وأن الحصان هو كناية عن سلطة الحكومة المنفذة والمسيطرة بإشرافها على هذه الحملة الدائمية التى تحملها الأمة على الجهالة والرذائل، وأن ذلك السوط الذى فى يد الرجل إنما هو رمز (الصحافة) التى هى آلة سامية فى يد الأمة تستعين بها مع الحكومة على قتل الرذيلة والفوضى والضعف التى يمثلها ذلك الحيوان المشوه الفظيع.

ومهما يكن هذا التفسير لهذا الشعار خياليا أو حاملا شيئا من تصوير المبالغة التى قد لا تعبر عن الروح الواقعى العام إلا فى بعض الأمم وفى بعض الأحيان وفى ظروف خاصة يدخلها الشىء الكثير جدا من التغيير والتبديل والتكييف والتأويل، حتى تنهضم. مهما يكن ذلك فى أمر هذا التفسير الصحفى، فإنه يحمل حقيقة رصينة يصدق انطباقها وسريان مفعولها فى بعض الظروف كما قلنا.

فكأن الصحافة عند الأمم البعيدة الشأو فى الحضارة هى الوسيلة المشروعة لإنارة طريق الحكومة، والمشى فى خطة اكتساح الآلام المادية والأدبية من طريق الأمة الحية المستنيرة، وإذن فما هو سبيلها؟ سبيلها طبعا النصح الحقيق والإخلاص الوثيق للحكومة التى تسعى هى بدورها فى نصح وإخلاص

للأمة التى تتولى شأنها وتحكم فى مصيرها وتقودها إلى المستقبل المرجو ، مستقبل الثروة والعلم والمكانة الاجتماعية الجيدة المؤدية إلى غبطة وسعادة وبلهنية تتمتع بهن الأمة فى الحياة ، وإذا سعدت الأمة فإن سعادة الحكومة تكون بالطبع أمراً لازما ونتيجة طبيعية معقولة لهذه السعادة الناشئة من طريق التضامن والمساعى الجليلة المتبادلة بين الجانبين ، هذا إذا تسامحنا فلم نقل إن الحكومة قد تكون أول هيئة اجتماعية تستفيد من اتجاهات الصحافة ومباحثها المختلفة فى الشئون الاجتماعية والاقتصادية .

وأى طريق إلى السعادة والبلهنية وتفوق المكانة للأمم الحية أقصر من هذا الطريق الذى تتضافر فيه قوتان متساندتان تتألفان من وثاقة الاخلاص وحقيقة النصح : قوة تعطى للأمة من الحكومة ، وقوة تعطى للحكومة من الصحافة .

ومهما تكن قوة الصحافة ونفوذها وسلطتها فإنما كل ذلك يستمد من قوة الحكومة والأمة ، ويكون فى الوقت نفسه عنوانا صحيحا لما فى البلاد من سياسة عاقلة متقدمة ، وقوة حقيقية تعتد بنفسها وتتأهل للقيادة السعيدة المنظمة السائرة فى أجل وجهات الحياة .

كثير من الهيئات استفاد من الصحافة فائدة جلى ، من إرشادها وثقافتها ومن الإعلان الذى يلفت الأنظار نحو بضائعها ومنسوجاتها ، ومن المثل العليا التى كثيرا ما تلتمس فى أبواب المجلات وحقول الجرائد ، وصفحات النشرات العامة .

وليست الصحافة مجالا لسرد الأحاديث والآراء وغيرها بلا غاية وبلا

هدف سوى اكتساب الشهرة على كواهل القراء والمشتركين، أو اكتساب الدرهم والدينار ليس إلا من استرضاء هذا ولفت نظر ذلك وخدمة أغراض هؤلاء، كما يفعل البهلوان أو المشعوذ أو المأجور، كلا، ولكن الصحافة فن وعلم ومبدأ وغاية ودرس يتخلله النبل، ويلازمه القصد فى مسيره، وشرف الحياة فى أعماله، وتنوير الجمهور، وتثبيت المبادىء والطرق السديدة فى شتى نواحى الحياة العامة.

وكثير من متفوقى الرجال لم يتكون لهم مبدأ سام إلا من طريق الصحافة، وكثير من الصحف قادت سياسة أمة بأسرها، ووضعت لها سبل النجاة فى عدة مشاكل اجتماعية واقتصادية كانت لولا الصحافة ظلمات بعضها فوق بعض.

قال الاستاذ محمد عبد الله عنان الكاتب السياسى والمؤرخ العظيم والمحامى المصرى البارع فى فصل له عن الصحافة ما نصه: لا يستطيع مؤرخ أن يتجاهل الدور العظيم الذى أدته الصحافة فى تطورات العالم السياسية والثقافية منذ أوائل القرن الماضى، ولا يستطيع مؤرخ الحرب الكبرى أن ينسى أن الصحافة كانت إلى جانب الجيوش والأساطيل أداة من أدوات النصر، وليس مبالغة أن توصف الصحافة الحديثة بأنها فى الدولة سلطة رابعة إلى جانب السلطات الدستورية الثلاث: التشريعية، والتنفيذية والقضائية، وفى ظروف معينة تبدو الصحافة أولى السلطات وأهمها فى الدولة والمجتمع. تنشىء حكومات وتسقط حكومات، وتحشد الرأى العام لتحقيق برنامج معين أو فكرة معينة، وقوتها فى ذلك لا تعادلها قوة، ونفوذها لا يجاريه نفوذ.

هذه حقائق بديهية لا تقتضى جدلا أو مناقشة ، وما زالت الصحافة فى الأمم العظيمة الحرة هى صاحبة المقام الأول فى قيادة الرأى العام ، وفى توجيه القوى السياسية والاجتماعية .

من هذا ومما سبق أن بسطناه من الأفكار تتضح قيمة الصحافة الحقيقية ومزاياها وتأثيرها القوى فى حضارة الأمم ومصائرها الأدبية ، فلهذا يجب أن نفهمها حق فهمها ، ونضعها فى المكان اللائق بكرامتها من الاحترام والتقدير .

هل للنجاح المحدود صلة بفضائل النفس الكبرى ؟

الحياة ميدان فسيح رحب الجوانب متعدد المذاهب ، وفى هذا الميدان جوانب لامعة رصينة فيها أمور المجد الكافية ومزايا النبل الحقيق ، كما فيها جوانب مغشوشة ينخدع بها جبان الحياة من أول وهلة فإذا عرضتها على محك السمو المتغلغل فى صميم العبقرية خانها العرض وانزوى بها التزوير إلى ذلك الجانب القصير المدى الضيق الانطلاق .

فإذا رأيت من الشخصيات الإنسانية من يقع حظه القصير على جانب من هذه الجوانب المغشوشة الخادعة ببهرجها صغار الأعين فينجح فيها نجاحه الرخيص فثق أن هـذه الشخصيات من البعد عن الفضائل الكبرى للنفس الإنسانية بحيث يعوزها الإنتـاج الخصب فى الجوانب اللامعة من ميـدان الحياة ، وأن نجاحها هذا ليست له أية صلة بتلك الفضائل الانسانية التى تحتفظ بها الحياة لأبنائها الممتازين هبة سماوية عزيزة الإدراك بعيدة الشأو ، فإنما هو نجاح محدود لا يقام له وزن عند ذوى النفوس المليئة بكنوز النفوس.

هذه — ولا ريب — آراء تقررها الفلسفة العالية ويثبتها علم النفس ، ويعيرها الأدب أشد أوتاره موسيقية ورنينا ، فلا تغررك المظاهر السطحية والمسائل المتاحة لكل عابر سبيل ، فإن الأجدر بالتقدير والقياس هو الحقائق المنتجة التى يكبو دون الوصول اليها عشاق الخيالات أو رواد البهارج الزائفة.

أقول هـذا وأنا مستطيع أن أضرب له عـديد الأمثال من شتى نواحى الحياة فى التفكير والعمل .

ان تشارلس دارون الشهير صاحب مذهب النشوء والارتقاء، ونظرية أصل الأنواع، كان الحظ الرخيص قد هبط به فى بادىء أمره عندما تقدم إلى أحد اقربائه ليأخذه معه فى سياحة جوية فى طيارة، فلم ينجح فى هذه المحاولة، ولكنه — لحسن حظه — أدار نظره إلى حقائق العلم الرفيعة وتجاريب الحياة المجدية، ومعجزات الفن الطبيعى، فكان منه للعالم دارون الخالد الذكر وأحد بناة الكون فى نظر العلماء ورجال الفكر الممتاز.

فهل لنا أن نعتبر سقوط دارون فى تلك المحاولة البسيطة دليلا على عدم استعداده للمثل العليا، أو على نضوب نفسه من منابع تلك المثل؟ لا لا، المسألة بالعكس، فلو نجح دارون فى الطيران حول الأرض لأخذت نفسه بهذا النجاح المحدود، ولتعطلت منها جوانب فضائلها المكنوزة فخبا تدريجيا ذلك الشعاع الذى — بفضل هذا السقوط — ملأ الدنيا رهجا وقلب تجاريب العلماء الأقدمين ونظرياتهم رأسا على عقب.

هنا فى مثل هذه المواقف تمتحن النفوس حقيقة، لا فى غيرها مما يناله الدهماء وطلاب النجاح القصير:

هذى المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وإن دينيسى الشهير الذى حاز إعجاب العالم وهو على العرش، لم يأت بفائدة حينما أسندوا اليه إدارة مدرسة، وهكذا النفوس العظيمة الغنية بمواهبها المكنوزة لا تفلح فى رخيص الأمور، ولكنها تبرق وتلمع وتعطى أحسن الإنتاج إذا وجهت للعظائم والمسائل الانسانية الكبرى العامة الواسعة، وحسبك أن الطفل الصغير يعجز عن تدبير أمر كبير أو حل

مشكلة حيوية أو إيجاد عمل يملأ فراغ الحاجة ، ولكنه يستطيع حفظ جدول الضرب عن ظهر قلب ، ويستوعب بذاكرته مسائل سهلة من بسائط العلوم المدرسية قد لا توافق طبيعة من يدبرون كبار الأمور ، ويحلون مشاكل الحياة والاجتماع ، ويخلفون الأعمال الكبيرة فى هذا العالم العظيم .

وجوب الاستعداد للاحتفال بذكرى المتنبي

بمناسبة قرب مرور ألف سنة على وفاته

فى السنة الهجرية الآتيـة : « سنة ١٣٥٤ »[1] ستتم ألف سنة على وفاة الشـاعر العربى الاســـلامى العظيم ، أبو الطيب احمد بن الحسين المتنبى الذى ولد بالعراق « الكوفـة » فى سنة ٣٠٢ هـ ونشـــأ وتعلم فى سوريا « حلب » وفيها نظم أبلغ قصائده الخالدة ، ورحل فى طلب المجد الى مصر ، وبهـا أقام زمنا تفيض به — حول نيلها — شـــاعريته الممتعـة ثم توفى فى سنة ٣٥٤ هـ

فالمتنبى شـاعر تشترك فيه الأقطار العربية ، وتفتخر به الضاد من أقصى حدود بلادها إلى أقصاها بلا تفريق .

ولسنا الآن فى صدد كتابة تاريخ حياة شـاعر العربية العظيم ، ولـكننا نريد إيقاظ شعور الأدباء والمتعلمين فى جزيرة العرب إلى وجوب الاهتمام بذكرى مرور ألف سنة على وفاته فى موعـدها الذى اقترب زمنه جـدا ، ليؤدوا بهذا واجبا أدبيا يشعرون به للمتنبى .

وقد علمنا مما قرأناه فى الصحف أن مصر وسورية والعراق والمغرب ، تتهيأ للقيام باحتفالات هائلة بهذه الذكرى العظيمة للشاعر الخالد ، وعلمنـا

---

(١) كتبت هذه المقالة فى سنة ١٣٥٣ هـ الموافقة ١٩٣٤ م

أن القطر التونسى كان السابق فى التنبه لهذه الفكرة ، وأن صحف سوريا قامت تحث العرب هناك على التهيؤ لها ، ونحن نجزم ان ستتحقق البلاد العربية كلها هذا الأمر الحسن فتهتم له قبيل وقته ، وتضع البرامج اللازمة لإجرائه فالمتنبى ليس بالشاعر الإقليمى ولا المخصص ، ولا هو بالذى يعدّ غض النظر عن إحياء ذكره أمرا عاديا ، فهو شاعر اللغة العربية الفحل ، وهو بمنزلة معلم عظيم من معلمى أدباء العرب ، وهو نجم ساطع خفاق من نجوم الأدب العربى النيرات . ولا يخفى مكانه فى سماء الشعر ، وهو الشاعر الوحيد الذى لقحت آراؤه وأفكاره ومعانيه منتجات الأدباء فى مدة ألف سنة على اختلاف طبقاتهم ، والذى قل أن تجد اديبا عربيا إلا وهو يحفظ جانبا من شعره متنوع المقاصد الفلسفية فى شتى نواحى الحياة الفكرية والخلقية ، ويتمثل بها فى كتابته ويتلوها فى مواضع الاستشهاد فيما يناسبها من حوادث الدهر ، ولا نظن شاعرا عربيا آخر ممن كتب لهم الخلود يبارى أبا الطيب فى هذه المكانة قديما وحديثا — مع استثناء المعرى — وإن ادعى بعض الشعراء أنه على غراره ، ولكن أين شعر التقليد من شعر الطبع ؟

كرث الغم مرة صديقا لنا لفقد عزيز لديه ، وزارنا هذا الصديق فى مكتب عملنا بجدة — قبل عامين — وكان باديا أثر الأسف والتحسر على وجهه المربد ، فأخذت أخفف ويلاته ، ثم أنشدت بينى وبين نفسى بصوت مسموع دون أن أوجه اليه الخطاب :

أنت يافوق إن تعزّى عن الأحبا ب فوق الذى يعزيك عقلا

وبألفاظك اهتدى فإذا عزا ك قال الذى له قلت قبلا

ابدا تسترد ما تهب الدنيا فياليت جودها كان بخلا

فإذا بالصديق وقد أثرت فيه الأبيات الثلاثة يهتز فى مقعده ، واذا بى انتهز الفرصة فأعيد تلاوتها بين الفترة والفترة ، واذا به ينتقل تدريجيا من الكآبة التى أذلته الى طلاقة المحيا والرضا والاستئناس والمرح .

وأخذت بعد هذا أفيض الثناء على المتنبى وشعره ومبلغ أثر هذا الشعر فى النفوس ، وكيف غسلت أبياته هذه حزن الصديق ومهدت له سبيل استقبال الحياة من جديد ، فأكد لى انه كان يعتقد وأنا أتلو الأبيات أنها من شعرى ، وأنى نظمته الساعة لمواساته ؟ فقلت له ! صدقنى ان هذا الخلود الذى ناله المتنبى ليس عن عبث ولا هو وليد صدفة اومحاكاة ، كلا ، ولكن الرجل عبقرى فى قرارته ، وقد درس طبائع النفوس ومكامن الأفكار والعواطف فيها ، ولمس أدق اسرارها فعبر حسب هذه الدراسة وهذا اللمس ولهذا سيخلد شعره الآلاف الأخرى من السنين ، وسيبقى الى الأبد كما يبقى الذهب الخالص تحت رزح الاجيال والدهور .

وجادلنى مرة صديق آخر له المام بالأدب ، وكان الموضوع شعرشوقى ، وهو يفضل هذا الشاعر على كثير من غيره ، وتبلغ به القحة أن يقارن بينه وبين المتنبى ، فادعى أن « الصور » فى شعر شوقى فاتنة تماثل صور المتنبى ، وكان برغم إلمامه وادعائه قليل الاحساس بفتنة الصور الشعرية ، وضعيف التذوق لمعانى الفتنة الحقيقية ، وكانت لشوقى عنده مكانة فوق مكانته

الواجب وضعه فيها ، وتقدير لا يرتكز على علم صحيح أو فن قويم أو تحليل دقيق ، فكان كلما تلا على صورة من هذه الصور الشوقية جلوت له ضعفها حتى يلمسه فيرتد ناكصا ، وأقنعته أن فى شعراء مصر من لا يدانيه شوقى ، فهذا العقاد ، أو حافظ ، وحسبك بهما أو بأحدهما شاعرا ، يبدو شوقى طفلا بالنسبة اليه ، والمقام لا يساعدنا هنا على تحليل الشاعرية عند كل هؤلاء ولا عند واحد منهم ، فإلى الفرصة ، وأخيرا قلت للرجل اسمع وتلوت للمتنبى :

كفى أرانى ـ ويك ـ لومك ألوما ... هم أقام على فؤاد أنجما

وخفوق قلب لوعرفت لهيبه ... ياجنتى لرأيت فيه جهنما !

وهذه صورة يرسم فيها المتنبى — بغير أن يتعمد الرسم ، وهنا الفن ، قلبه الذى أنجم « رحل » ، وقد أقام فيه الهم إقامة بارزة جعلت لوم العاذلة ضربا من العبث جدير هو باللوم نفسه ، لأن هذا القلب المثقل مستديم الخفوق ، مغموس باللهيب ، لو أتيح للحبيبة — وهى جنته — أن تراه لرأت أمامها جهنم بما فيها من الهول والخطر ، فهذا القلب الجهنمى الذى اندلع منه اللهيب ، وربضت عليه الهموم ربوض أكداس الوقود فى عرصات الجحيم إنما هو صورة حقيقية مصغرة لجهنم بما فيها من وسائل التعذيب .

وكان هذان البيتان وحدهما كافيين لأن يسحقا من مخيلة صاحبنا ألف أثر وأثر لألف بيت وبيت كان يحفظها لشوقى ويتشدق بها فى كل ناد ، على أنها أبيات فيها « تصاوير » فاتنة ، واكتفيت بهما ولم أعد أمضى فى الاسترسال ،

لأن صاحبي كان قريب الايمان ، وكان لقرب إيمانه هذا أثر فى انخداعه بزخرفة شوقى الرخيصة ، وأخذ من ذلك الحين يولى وجهه شطر الحقيقة وبدأ يحس بما فى المتنبى من عمق وعظمة فنية وتأثير وسبب للخلود .

وللمتنبى اعتزاز هائل بنفسه ، و تقدير لهذه النفس حق قدرها ، ليصون كرامتها من الجـــاهلين من أدعياء الشعر فى عصره ، فقد تحرش به هؤلاء عندما وفد إلى بغداد تاركا مصر على أثر يأسه فيها من الأسود المتملك — كافور الأخشيدى — وقد عاداه فى بغداد الوزير المهلبى ،لأنه لم يمدحه جريا على عادته فى عدم المدح لغير الملوك ، فأغرى هذا به أولئك ، ولكن المتنبى العظيم لم يجبهم على سفاههم وإنما قال عندما روجع فى عدم إجابته إياهم ! إنى فرغت من هؤلاء . وأمثالهم عندما قلت فيمن هم أرفع طبقة منهم من الشعراء :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر ضعيف يقاوينى قصير يطاول
لسانى بنطق صامت عنه عادل وقلبى بصمتى ضاحك منه هازل
وما التيه طبى فيهم غير أنه بغيض إلى الجاهل المتعاقل

وقولى :

أرى المتشاعرين غووا بذمى ومن ذا يحمد الداء العضالا ؟
ومن يك ذا فم مر مريض يجـــد مرا به الماء الزلالا

وهكذا تتم عظمة المتنبى فى شعره وأخلاقه وأفكاره ومكانته .

ولا يتبادر إلى ذهن أحد أن المتنبى كان من المتكسبين بالمديح كما هى

العادة عند كثير من المتشاعرين ، كلا فليس مديح المتنبي لبعض الملوك إلا أمراً عرضيا لم يجعله الغاية من الشعر ، وقد كان هو نفسه طالب ملك فسبر أغوار هؤلاء بهذه الوسيلة كما سبرها بغيرها من الوسائل ، وإذا تعددت وسائل المرء — ناهيك اذا تضادت — كانت دليلا على أن الغاية إنما هى شيء آخر أعظم وأجل .

فمديح المتنبي يجيء ثانياً بعد ملكة الشعر الطبيعية عنده ، وتبدو البلاغة التى هى أساس شعره فى التأثير على النفوس الحساسة ، والتى مظهرها الاول إنما هو فى أقواله التى يصف بها طبائع النفوس وحقائق الحياة وأخـــلاق الدنيا وأهلها ، وقد كان هجاء مقذعا ، إلى جانب مديحـــه المعسول البليغ .

وبالإجمال فمن أية ناحية من نواحى المتنبي أردت البحث لاتجد إلا عظمة وتفوقا ، ينتهيان بغلبة وانتصـــار ، وليست تلك الغلبة وذلك الانتصار ، اللذان ينتهى بهما تفوق المتنبي وعظمته إلا انتصار الفن وغلبة الحيوية الشخصية التى تتمم الفن أو تبرزه مجسما ، فقد عاش المتنبي فكرة أكثر من عيشه شخصاً من بنى الانسان ، وكان فكرة صاقبة مجلجلة تدور حولها حيثما وجدت شتى المنازعات وشتى العواطف والآراء ، ولقد كان الرجل قطب الدائرة ومركز المجموعة الشمسية من شعراء وأدباء عصره ، سواء أكان وجوده فى بلاده أم فى غير بلاده ، فقد كان كذلك فى العراق وفى سوريا وفى مصر : فى العراق حيث الحساد والمناوئون من الوزير المهلبى وأعوانه الى الحاتمى وابن سك الشاعرين ، وفى سوريا حيث المحبون والمعجبون من سيف الدولة بن حمدان ومن على رأيه ، وحيث الأعداء المزاحمون أيضاً

من أبى فراس الحمدانى إلى ابن خالويه ، وفى مصر حيث يجد الرعاية والعطف أولا من أكبر رأس يسوسها ، وحيث يجد الانقلاب والتنكر بعد ذلك من هذا الرأس ومن الوزير ابن خزابة ، كان الشاعر الخالد مثار الضجة ومحور كرة الحياة الفكرية فى كل حالة من هاته الحالات المختلفة ، ترحل معه هذه الضجة والزعامة اذا رحل ، وتقيم معه حيث أقام ، وكان هو يغذيها من فنه وسمو شخصيته بما يجعلها تلتهب وتزداد اشتعالا . كان يفيض حوله كبرياؤه الشامخ وترفعه النبيل ، واعتزازه بتلك الشخصية وعزوفه عن سخافات القراء الصغار .

هذا جانب وجيز من شاعر العربية الخالد ابى الطيب المتنبى نعرضه على القراء عسى أن يستوفزهم الأدباء للتصميم على التفكير من الآن للاستعداد بإقامة حفلة تذكارية له عندما يحل موعد مرور ألف سنة على وفاته ، ويحل هذا الموعد فى العام الآتى كما أسلفنا ، وإن الحجاز ليبرز للعالم المستنير صفحة مجيدة من شعوره الممتاز إذا اهتبل هذه الفرصة للبرهنة من جديد على هذا الشعور الذى ينتظره منه العالم العربى ، وإن مكة المكرمة لتؤدى واجبا قيما يحفظ لها مكانة سامية بين عواصم البلاد العربية بإقدامها على هذا الأمر الجليل .

وإن روح المتنبى من وراء ألف عام لتنظر الى ما يقوم به الشعب العربى الكريم نحوه من واجب محتوم ، لا تكون المعذرة عنه إلا ضربا من الإهمال والضياع الذى يدل على تلاشى الشعور والحياة الأدبية العاملة .

إن الحجاز — أو بلاد العرب ، مهد القرآن الكريم ؛ وهذا القرآن

هو أضواء شمس تسطع فى تلك اللغة العربية المجيدة التى من كواكبها البارزة هذا المتنبى وشعره ، فإحياء ذكر المتنبى والاهتمام به والاحتفال له انما هو جهد عظيم يوجه للعناية بهذه اللغة الكريمة التى هى مدار عز العرب ومجدتهم ولواء نهضتهم الخفاق ، فمن غير الحجاز أحرى بأداء هذا الواجب العظيم ؟ ؟ .

مؤسسة للبؤساء

عمل وأمل ـ دار العجزة ـ دار الأيتام ـ تطور الفكرة

هذا بيان لمجموع الشعب نقصد به شرح عمل مجيد خيرى يعد فى كل الأمم من أوليات أعمال الانسانية وضروريات حياة الشعب الراقية، إذ من الثابت أن الشعب كلما ارتقى فى حضارته ومستواه العقلى ترتقى فيه عواطف الرحمة والنبل والعطف على بائسيه من فقراء ومنكوبين وأيتام ومقعدين الخ. نقصد بهذا البيان سرد تاريخ دار العجزة الحالية التى أنشئت لإيواء الفقراء والمعوزين وما عطف به أهل المبرة عليها من أعمال الخير، ثم بيان الأمل الهائل الذى يتطور فى هذه المؤسسة الصغيرة فيصل بها فيما نعتقد إلى مؤسسة عامة تشمل هذه الدار وداراً أخرى لتربية الأيتام من أبناء الشعب العربى وتعليمهم لوازم المعيشة ووسائل الحياة التى لا بد منها.

فنقول أولا إن دار العجزة الحاضرة أسست فى عام ١٣٥٣ هجرية وكانت فكرة اختمرت فى ذهن صاحب السعادة مدير الشرطة العام مهدى بك فنفذها إلى حيز الفعل بعد الاستئذان من صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية عبد العزيز الأول فسمح جلالته، وكان المنتظر من أمتنا وهى مسلمة وعربية أن تبذل فى سبيل المشاركة فى إقامة هذه الدار كل ما تملكه من عاطفة نبل وجهد يؤدى إلى المشاركة فى إعطاء ما يساعد هذه الدار على الاستمرار فى القيام بأعباء مهمتها الانسانية الكبيرة التى أسست من أجلها

وأخذت على عاتقها أن تنفذها حسبما كان ، مهما لقيت من مصاعب وأتعاب . ولكننا وإن لقينا بعض العطف من بعض مواطنينا فإننا ما زلنا محتاجين إلى عطف أوسع وأكثر يهدم مصاعب العمل ويلاشى عقباته التى لابد أن تبقى قائمة إذا لم يتفضل الشعب بأسره فيؤدى واجبا هو فى نفس الوقت واجب مستحق للشكر الجزيل والمفخرة الدائمة ، وهذا من اقدس الواجبات ولاسيما لمن يحتاج المساعدة منهم . واى صنف من صنوف الناس أحوج إلى المساعدة بمعناها من صنف العجزة والبائسين والذين أخنى عليهم الدهر بكلكله وعضهم بأنيابه فتركهم يتمرغون على بساط البؤس والمتربة لا يعرفون طريقاً يسلكونه إلى سد حاجتهم فى المعيشة ،وان عرفوا هذه الطريق معرفة نظرية فأين القوى التى تنهض بهم إلى سلوكها وهم مقصوصو الأجنحة، مبتورو السواعد ، فاقدو الهمم مما رمتهم به يد الاقدار ؟

لهذا كله أسست أولا دار العجزة ، وأتبعت ثانيا بالتفكير فى توسعة نطاقها إلى دار أيتام أيضاً . .

وقد أشار حضرة الفاضل عبد القادر أبو الخير أحد أعضاء هذه الدار ومحاسبها وأمين صندوقها « الفخرى» وهو من العاملين المخلصين لإنهاض هذه الدار ومن الغير عليها والمتحمسين لها ، أشار فى مقال نشره فى العدد ١٩٩ من جريدة صوت الحجاز الغراء إلى ما لاقته هذه الدار فى أطوار حياتها من تشجيع وإغضاء وقعود عن مناصرة مشروعها ، فاضطر أن يذكر العدد القليل جداً والبالغ فى قلته حد الغرابة من السادة النبلاء المتبرعين لهـــذه الدار الأمر الذى يستوجب الخجل والأسف على أمة كأمتنا لا يتقدم منها فى هذه الغاية من أبنائها سوى عشرة أشخاص نصفهم فقط تبرع بالمال والنصف الآخر تبرع بجهوده الشخصية .

أسست دار العجزة فى عام ١٣٥٣ هجرية الموافق ١٩٣٠ ميلادية كما ذكرنا آنفا ، وكانت الغاية منها أولا إيواء أولئك المنكوبين العاجزين عن الكسب ، ثم اراحة الحجاج والأهلين من إلحاح هؤلاء عليهم وعرض عاهاتهم على الأنظار ما بين كل آونة وأخرى ، وإخلاء الشوارع والحرم الشريف من أجسامهم التى ينبو عنها النظر ، فاتخذت داراً فسيحة تسع المئات من السكان أوفد اليها فى عام تأسيسها ما ينوف على الثلثمائة عاجز وعاجزة قام بإعاشتهم صاحب السعادة مدير الشرطة وهيئة من العاملين المخلصين انتخبها سعادته وأضاف إلى ذلك الدعاية الوافرة لها بين الحجاج والأهلين ، وعبد لها كل الطرق المؤدية إلى الغاية المنشودة من تأسيسها ، وكان مجموع ما انتهت اليه هذه الدعاية من المبالغ المخصصة لهذه الدار من الحجاج ما يقارب الاربعمائة جنيه انكليزى والمائتى طاقة من القماش والثلاثين كيساً من الأرز والعدس والحنطة . وهذا غير ما تفضل بالتبرع به حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم من المساعدة الدائمة ، وهى تسعون كيساً من الدقيق فى كل شهر ، ما تزال جارية حتى اليوم .

وفى عام ١٣٥٤ المنصرم بلغ وارد هذه الدار نحو مائة جنيه انكليزى أو تزيد قليلا ، وكيساً واحداً من الذرة ، وكان سكانها فى هذا العام يقاربون المائة . هذا مع استمرار نفس الدعاية التى بذلت لها فى عامها الأول ، والجهود التى صرفت فى انعاش هذه الدار .

أما ما صرفته هذه الدار من هذه الواردات فيعادل معظمها تقريباً حيث استهلك هذا المعظم فى مرافقها الحاجية والترفيه بقدر المستطاع على نزلائها الذين أصبحوا بعد أن اطمأنوا الى النزول بها يعدونها غاية لا تنال من متاع الدنيا بينما كانوا على خوف من دخولها حين التأسيس ، لأنهم كانوا يظنونها سجنا

لامرتفقاً حسناً ، ولكنها عادت عليهم بفضل المنصرف المذكور مأوى طيباً ، إذ جادت محلا وحسنت مرتفقاً . أما مابقى من ذلك الوارد فهو معد طبعاً لزيادة الترفيه على هؤلاء المعوزين فى المسكن والمأكل والملبس المتوفرة فيها شروط الحياة المريحة والصحة الجيدة ، حتى يستطيعوا التخلص بفضل ذلك من هذه الحياة البائسة والرجوع إلى الحياة الطبيعية التى يتمتع بها معظم الناس وقد تخلص قسم منهم من حياة البؤس حتى تضاءل عددهم من ثلثمائة إلى أقل من مائة .

دار اليتامى فى وضعها الجديد

ماكاد مداد القـــلم يجف بعد أن نفضنا يدنا من كتابة مقالنا الأول فى هذا الموضوع ، حتى كان المقال بين أيدى القراء الأماثل يؤدى مفعوله فى القلوب النبيلة العطشى إلى تحقيق النبل ، والأذهان الخصبة المتفتقة عن حيوية ترغب البروز فى ميادين الفضل والخدمة الوطنية الجليلة ، واللهفى على أداء العمل القومى الجميل لهفة الفحول الأصيـلة إلى الصيال أو إلى إغذاذ السير فى طريق المكارم الوطنية والمعالى الناجحة ، وكأن طبعهـا الأصيل لاينتظر بها إلا ريثما يدعوها الحدو الأخاذ فترسل نفوسها الحساسة جزاء عاليا لدعوة المجد إلى المجد ، وبتعبير أولى لدعوة الأدب إلى اعمال النبل .

وماكاد مقالنا المشار إليه يفعل فعله المنتظر فى نفوس عظماء البلاد حتى أسرع منهم رهط مبارك النزعة ميمون اليد ، حفى بالخير ، إلى تلبية النداء الصادق لمعونة اليتامى بالمساهمة فى رفع الطابق الثالث من بناية دارهم الفخمة القائمة فى جياد ، والتى تنتظر مثل هذه الأيدى الندية تمتد اليها محركة بنفوس عميقة الإحساس وهمم ملموسة الانقاذ .

تقدم هذا الرهط النبيل من سراة الأمة فنضحت أريحيته الثرة بما يقارب ألفا من الريالات تتبعها ألوف متلاحقة من أماثل آخرين كانت لهم فى الماضى وكانت لهم فى الحاضر وستكون لهم فى المستقبل مواقف فعالة فى أعمال البر وتشييد المفاخر وتقديم البراهين النيرة على أنهم عمد النهضات ودعائم الحياة

السعيدة فى هذا القطر السعيد . ولو كان « الجنيه الانجليزى » هو وحدة العملة فى المقادير المتوالية التى يتبرع بها المتبرعون فى هذا البلد لكنت رأيت أريحية ذلك الرهط المحسن إنما نضحت بألف من الجنيهات بدل الريالات تتبعه الألوف من متبرعين آخرين ، ومـــع هذا فإن هذه الريالات التى امطروها على صندوق دار اليتامى هى اللبنات النقية البيضاء التى يشيد على أساسها صرح الذهب فيشيد على أساس هذا الصرح الذهبى صرح تقوم لبناته من مادة الحجارة فى ظاهر الأمر ، ولكن حقيقتها لبنات معجونة من مادة الانسانية الممتازة كما نوهنا فى مقالنا الأول .

اغتبطنا وكادت الغبطة تستخفنا عندما قرأنا نبأ هذا التجاوب المنظور بين دعوتنا المخلصة وتلبية الوطنيين المخلصين فى أسرع مما ينتظر من الوقت فأما هذا الرهط الكريم وأما هذا النبأ الجليل فيطالعك فى هذه النبذة الصغيرة التى كتبتهـا جريدة أم القرى الغراء فى عددها الصادر يوم الجمعة . . . تحت عنوان « أريحية فائقة » :

« تبرع لدار الأيتام حضرات الأفاضل الشيخ يوسف أفندى زنيل بجدة بـ ٢٥٠ ريالا عربيا ومعالى الشيخ عبد الله السديرى وكيل أمير المدينة بـ ١٥٠ ريالا عربياً ، وحضرة احمد أفندى باناجه بجدة بـ ١٥٠ ريالا عربياً وحضرة الشيخ عبد العزيز الخريجى بالمدينة بـ ١٥٠ ريالا عربيا وإن دار الأيتام تقدر لهم أريحيتهم وعطفهم عليها الخ »

وحبذا هى أريحية صادقة من هذا النفر الذى طالما صدق الخدمة لبلاده وأعطى البراهين على حيويته وحيوية الأمة التى انجبته ، فالشيخ يوسف زنيل هو عميد بيت « زنيل على رضا » وهـــو البيت الأصيل فى التجارة

والسباق إلى المكارم ، وحسبك مؤسسه المرحوم « الحاج زنيل على رضا » الذى كان يجلس للفقراء على مصطبة داره كل يوم ولا سيما أيام الجمع فيطعم الجائع ويكسو العريان بيده حباً فى إيصال الخير إلى مستحقيه مباشرة ، وحسبك شقيقه المرحوم « الحاج عبد الله على رضا » ذلك الأسد الذى لا يكاد الناظر يتمتع بمرأى وجهه الكريم حتى يرى القوة والشجاعة واللطف والعقل مجتمعة فى رجل ، وحسبك أن « أخاه محمد على زنيل » هو مؤسس مدارس الفلاح فى الحجاز والهند والبحرين ، وما أنا فى صدد ذكر ما أحدثته هذه المدارس الناجحة من أثر بالغ فى شباب هذه البلاد ، وكاتب هذه المقال إنما هو غرسة واحدة من غراس هذه المدارس السامية .

وأحمد أفندى باناجه هو أحد أفراد هذه العائلة التجارية الممتازة بثروتها فى جدة ، وهو وزير سابق للمالية فى عهد الحكومة الماضية ، وهو فى عهده الحاضر نموذج من نماذج الاستقراطية المحبوبة النافعة ومثال من أمثلة اللباقة والزكن .

وهذان البيتان الحجازيان الكريمان ـ بيت آل رضا ، وبيت باناجه ـ هما مضرب المثل بجدة فى علو النفس والنشاط التجارى والقدم الراسخة فى بيوتات جدة العالية .

أما معالى وكيل أمير المدينة « السديرى » فقد طفحت الصحف ولا سيما المدنية منها ، بالثناء عليه لدماثة أخلاقه ومناهجه الديموقراطية ، وسبقه إلى غايات الحمد .

والشيخ عبد العزيز الخريجى فاضل من ذوى الفضل فى المدينة وعين

من أعيانها الكبار ، ودرة لامعة فى عقد النابهين هناك من تجارها ومشاهيرها ، وهو من أصل نجدى كريم استوطن المدينة من زمن بعيد ، وهو الفرد البارز الذى تتجه الأنظار أول ما تتجه إليه إذا ذكر عظماء المدينة ووجهاؤها .

لبت هذه الثلة نداء الإخلاص فى طليعة الحساسين ، فلم يسعنا الا تسجيل هذه الظاهرة احتفاظا بمزايا أمتنا العزيزة ونواحى نبلها . واعتزازاً بنجاح الكلمة النابعة من شعورنا قبل أن تفيض على القلم ، وتنويهاً بشأن الاخلاص الذى متى كان عنصراً فعالا من عناصر الأدب كان أداء رسالة ذلك الأدب مضموناً جيداً ، وهى نتيجة غير النتيجة التى ينالها أدب اللهو وإزجاء الفراغ .

وما دام فى الأمة من يعرف مواضع الحاجة الضرورية فإن فيها ـ قطعاً ـ من يعرف طريقة نشر هذه المزية الفاضلة على الغير ، جزاء عاجلا للمحسن الكريم ومهمازاً جميلا لغيره ممن هم فى طريقه إلى هذا الإحسان ، ونحن حين ندعو إلى مساعدة اليتامى والترفيه عليهم بتعمير قصرهم الجديد فإنما ندعو إلى عمل مبارك كالنهر ينبع من مكان فى حياة الشعب ويصب فى مكان آخر من هذه الحياة نفسها ، ينبع من القلوب الحية والهمم الناهضة ، وهى دليل قاطع على صلاحية هذه الأمة لسمو الحياة وحضارتها ، ويصب فى الوطنية السديدة فيزيدها سداداً ، وهو دليل يكشف عن عرفان الأمة معنى الوطنية فضلا عن دلالته على عرفانها خلق الرحمة والعطف ، واستجابتها لدواعى الحياة الاجتماعية وتقديسها فكرة الإنسانية العامة فى شخص هؤلاء اليتامى الصغار .

هذه الريالات كانت فى صناديق اصحابها قطعاً معدنية من الفضة لا غير ،

فعادت الآن قطعاً حية ذات معان ساطعة من المجد وحب البلاد ، وحب الخير وعظمة الأخلاق .

أما نحن فوكدنا قانون الحياة العـــام الصادق المنطبق على الافراد والجماعات ، وهو أن الحياة أخذ وعطاء ، فالموهبة التى أخذناها من الحياة واستوحينا قوتها من صميم عناصرها المتعددة نردها ثانية إلى الحيـاة دعوة قوية صادقة مؤثرة فتعود إلينـــا بعد ذلك مجاوبة عملية ، فنستأنف ردها إليها شكرا ناضجاً وثناء وهاجاً وذكرى خالدة نسطرها لأصحابها فتسفر هذه الحركات الاصيلة فى الحياة عن معنى لايتاح إلا للقيل وتخرج من نطاق الأعمال العادية إلى رحبة الخلود المعطار .

نظرات
فى المؤلفات الحجازية

حياة سيد العرب (١)

تأليف حسين عبد الله باسلامة

المطبعة الماجدية بمكة — سنة ١٣٥١ هجرية

أحمد هذه الفرصة التى أتاحها لى كتاب الأديب الشيخ حسين عبد الله باسلامة، العضو فى مجلس الشورى الموقر، فمكننى من الكتابة فى النقد بعد ان كانت فترة لم أزاوله فيها، وقد رغب إلى صاحب « صوت الحجاز » الأغر أن ألقى على الكتاب نظرة فحص ليكون ذلك أدعى إلى شهرته ورواجه وتشجيع مؤلفه، فتسلمت النسخة، وكان شعورى عند ما تسلمتها غبطة خاصة هى بالمسرة أشبه منها بغيرها، فإنه لا مانع أن يصول فى ميدان التأليف والكتابة قلم العضو المذكور برغم موانع مركزه وعدم استعداده العلمى والأدبى، فيضيف إلى المؤلفات الحجازية مؤلفا جديداً، ويمشى فى طريق سبقه اليها الأدباء، وإذن فلا مانع أن نشكر المؤلف على إقدامه ونشجعه على عمله، بهذا التنويه.

نظرت الكتاب فإذا هو على نوع من التأليف لا يقصد به إلا التجارة والاكتساب ليس إلا، وليس هو من النوع المتعمق فى وضعه بدقة لأجل خدمة العلم أو الفن، فهو عبارة عن مجموعة من الحوادث التاريخية والأقوال

---

(١) كتبنا هذا الفصل ونحن عازمون على متابعة النقد حتى نأتى على الكتاب برمته وهو فى أربعة مجلدات، ولكن ما كدنا ننشر هذا الفصل فى جريدة صوت الحجاز، حتى أخذت شتى العوامل تعمل على طلب وقف القلم عند هذا الحد نظراً لظروف اجتماعية تحيط بالمؤلف الذى ما لبث ان توفى رحمه الله.

السائرة فى الصحف الدورية مزودة بقسط هائل من الأغاليط والمفارقات وإهمال العناية الواجبة والتطاول الذى لا مسوغ له على أساطين المؤرخين وقساطرة الكتاب ورمى بعضهم بالإلحاد أو المادية والجمود .

ونظرتى إلى هذا الكتاب انما تنحصر فى ثلاثة أمور لا أتعداها إلى غيرها من الأمور الأخرى ،لأنه ليس لدىّ الفراغ الكافى لتحليل هيكل الكتاب بأجمعه ، فحسبى أن أنقد هذه النواحى الثلاث التى لاحظتها بسرعة ولعل الفرصة تتاح لنقاد آخرين :

١ — الغلط النحوى والصرفى .

٢ — إهمال نسبة الروايات إلى أصحابها .

٣ — الركاكة والانحلال فى التعبير .

وقد يجد المطالع إلى جانب هذه الأشياء عجرفة من المؤلف وغرورا ودعوى جوفاء يسوقها دون وقار ولا حيطة ما بين كل فترة من صفحات الكتاب ، وفى ذيل أو تضاعيف كل فصل من الفصول التى يأنس من موضوعها أنه يساعده على بذل ما فى نفسه من هذه الصفات .

لقد آثرت حبا فى التقصى المنسق ، واقتصادا فى الزمن أن أتتبع نقد الكتاب صفحة فصفحة ، أوفصلا ففصلا ، حتى أعبر ما بين دفتيه من شاطىء الغلاف الأول إلى شاطئه الأخير ، فذلك خير لى وللمؤلف نفسه من أن أقسم مواضيع النقد فأضم إلى كل قسم ما يندرج فيه من المواد المنقودة .

ولقد يحزب النفس ويهول المرء أن يرى فى كتاب كهذا ما أشرت اليه من جوانب الضعف والفساد وعقم الصناعة .

فأما الغلط النحوى فأبرز عيوب الكتاب، وهو عيب يستوى فى معرة الانحطاط اليه كل من العالم والأديب والكاتب والشاعر والمؤلف والصحفى، فلا مناص أبدا لأحد من هؤلاء من وجوب تجنبه والترفع عنه، وأما اهمال نسبة الروايات إلى أصحابها فى كتاب يزعم صاحبه انه كتاب تاريخ، برغم دعواه فى تضاعيف الكتاب انه « يسند » الحوادث إلى رواتها والاقوال إلى مراجعها فذلك مايقصم الظهر ويبعثر جهد المؤلف ويضيع مزية الكتاب وينم عن فشل غير محمود، وخلو من خلق الصبر والاناة على معاناة الاستقصاء والمراجعة، وهو مالا يعرفه مؤلفو التواريخ فى الشرق والغرب، وهنا تنهار الفكرة التاريخية من أساسها، وتبقى فى الكتاب أشباح ماثلة لاقيمة لها ولا غناء، وأما الركاكة فى الأداء والانحلال فى التعبير فأمر أظن المؤلف نفسه لا يدعيه لنفسه ولا يجسر أن يدعى انه من الضاربين فيه بسهم، وإنه ليشعر فى قرارة وجدانه ببراءته منه فيردد مع الحارث ابن عباد :

لم أكن من جناتها علم الله ولكنى بحرها اليوم صالى

وهناك أغلاط تاريخية وغير تاريخية سأشير إلى بعضها عند المرور بها حين مسيرى فى نقد الكتاب وهأنذا أبدأ بما أشرت اليه من الأمور الثلاثة :

جاء فى الصفحة الثالثة فى معرض كلامه عن طغاة العالم قوله ! « وكيف حفروا عن حتفهم بظلفهم » ، ونحن والناس معنا أجمعون ، لا نعرف أن للإنسان ظلفا يحفر به عن حتفه ، ولكن الأظلاف إنما تكون للبقر ، غير أن المؤلف قصد الاستعارة لا ريب، فشبه الانسان بالبقرة واستعار له ظلفها على قاعدة العرب الأقدمين ، ولا مانع من هذا ولاجحود لو أن المؤلف أحسن التعبير فى استعمال المثل العربى على أصله وصحته فقال « كالباحث

عن حتفه بظلفه ، أما فى استعماله على الوجه الذى اختاره صاحب كتاب حياة سيد العرب، ففيه مالا يغتفر من اساءة التصرف فى التعبير ، كإبرازه الكلمة على صيغة الجمع والامثال عادة لا تبدل وإنما يؤتى بها على أصلها ، وكاستعماله ، لفظ الظلف مفردا وهو يقصد وصف الجماعة فهل لكل هؤلاء الحافرين الذين ذكرهم ظلف واحد إذا صح أن ينسب اليهم هذا العضو المستعار؟ هذا مالا يجيزه علم الحيوان فضلا عن علم الأدب والبلاغة العربية وكتعدية الفعل « حفر » بعن والمعروف فنيا فى هذا الفعل انه يتعدى إلى مفعوله بنفسه لا بحرف الجر ، فتقول مثلا : حفرت البئر ، وما شئت من مثل هذا السياق المعقول .

وهى غلطة نحوية لا نستجيزها فى كتاب يوضع بين أيدى الناشئين وطلاب المدارس ، دع الكتاب والأدباء ، فما كان أسهل على الشيخ لو كان ذا قدرة على الكلام من أن يقول « وكيف بحثوا عن حتفهم بأظلافهم » ، إذا لم يرق له أن يرسل المثل كما نطقه العرب ويضعه فى مكانه مع حسن الأداء فيقول « وكيف كانوا كالباحث عن حتفه بظلفه »

وجاء فى الصفحة الرابعة كتابة كلمة « إرشاد » بهمزة فوق الألف ، وهو خطأ فى الإملاء كنا نهى عنه طلبة القسم الابتدائى فى المدارس ، وحق الكلمة أن تكتب همزتها تحت الألف ، لأنها مكسورة مراعاة للذوق فى فن الخط .

وجاء فى الصفحة نفسها « ولم آل جهدا عن تصفح ما وقع فى يدى من الكتب الخ » ، وان كل ما وقع فى يده من الكتب — إذا سلمنا ان كتبا وقعت فى يده — لا يألو مؤلفوها جهدا فى تحرى الصحة والصواب

فيمايزاولون من كل ما يحمل فن التأليف ويكمله ، وفى الوقت نفسه لا يألو صاحبنا « جهدا عن تصفح » هذه الكتب،وهو بعد هذا لا يدرى كيف يجب ألا تكون الألاءة فى الجهد من أهم نواحيهـــا ، فيقع فى مثل هذه الغلطة النكراء ويعدى فعل « آل » بعن وهو لا يعدى إلا بفى وكأنا نحسب ان هذا المؤلف مغرم بحرف « عن » الجار غرامه بالأغـــلاط والعثرات المبثوثة فى تضاعيف الكتاب ! !

وجاء فى الصفحة نفسها أيضا قوله « وقد أسندت بعض الحوادث إلى مخرجيها ورواتهـا التى اقتضت الضرورة اسنادها » وهو يريد أن يقول : « وقد أسندت بعض الحوادث التى اقتضت الضرورة اسنادها إلى مخرجيها ورواتها » فجاء برطن بتعبير فاسد فصل فيه بين الموصوف والصفة ، وأرجع فيه الضمير إلى غير مرجعه الواجب حتما أن يرجع اليه ، فكأنما حمل معولا وحطم به هيكل اللغة العربية تحطيما يقض مضاجع سيبويه والخليل وثعلب والمبرد وتتطاير له أرواحهم من أجداثها . .

وجاء فى الصفحة نفسها أيضا « . . . قد بذلت قصارى جهدى فى تحرير نسب العرب حيث أن الروايات فى الأنساب كثيرة جدا ومن أصعب الصعاب الوصول إلى نسب للعرب متفق عليه غير نسب النبى صـــلى الله عليه وسلم » ؟ ! !

وهنا وهم عظيم وخطـــأ تاريخى أعظم ، أما الوهم فهو حيث يحسب المؤلف أنه بذل قصارى جهـده فى تحرير نسب العرب وهو لم يذكر لنا طريقته التى اتبعها فى تحرير هـذا النسب ، ونحن موقنون أنه لم يصنع شيئا

من هذا القبيل، وهذا كتابه أمامنا يخلط فيه بين الأنساب العربية بما يخجل بسطاء النسابين ويستثير شعور من عرفوا طريقة ابن الاعرابى وأبى عبيدة والأصمعى والمفضل الضبى فى تحرير الأنساب. وأما الخطأ التاريخى فهو زعمه ان من أصعب الصعاب معرفة نسب للعرب متفق عليه، فلم هذ الغلو الشنيع وهاهى ذى أنساب القبائل والعمائر والبطون والأفخاذ والسلائل والبيوت متسقة متسلسلة معروفة ضبطها وحررها من يعتمد فى النسب على أصغر تلاميذه؟ ونحيل المؤلف على كتب الأنساب والتاريخ والسير فإنه واجد فى طبقات ابن سعد، والإصابة، وأسد الغابة، والاغانى، وابن الأثير وغيرها ما يرجعه ناكصا على عقبيه، تاركا أمثال هذه الدعاوى لمن عاشوا فى أشد العصور ظلمة وجهلا، وعلى وثائق النسب العربية الصحيحة المحفوظة عند قبائل العرب فى نجد وسوريا واليمن وقبيلتى شمر وعنزة الكبيرتين مما يسمى بعضه بسلاسل الذهب، وبعضه بسبائك الحرير.

وجاء فى الصفحة نفسها مردفا إلى الجملة السابقة، وكذلك اجتهدت كثيرا فى الوصول إلى معرفة أسماء أول من أسلم من الصحابة قبل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقبل دخول دار الارقم حتى أحصيتهم فردا فردا فبلغوا اثنين وتسعين صحابيا، لأن أكثر أصحاب السير والتراجم يذكرون أن عمر لما أسلم كان فى تمام الأربعين فظهر بالإحصاء غير ذلك».

وهذا تصريح لا يستطيع أن يقوله إلا رجل موظف فى مصلحة الاحصاء لنفوس الأحياء لا للموتى الذين مضى عليهم ثلاثة عشر جيلا ونصف جيل، فاستحلف هذا المؤلف يميناً مؤكدة كيف استطاع أن يقوم بعملية الإحصاء هذه للموتى من قبل أحقاب طواها البلى؟ أساعده على هذه المهمة ملك الموت

عزرائيل؟أم كشف الستار عن مسرح الرواية التى مثلت فى دار الأرقم ابن أبى الأرقم المخزومى ؟ أم كيف وفق إلى هذا الضبط والإحصاء ؟ وكيف طاوعته نفسه أن يقول إنى تتبعت الأموات فأحصيتهم فرداً فرداً ؟ وهل يسمح حضرة المؤلف فيفيدنا عن هذه الطريقة الإحصائية السحرية التى يمكننا أن نستعملها عندما نريد أن نعرف كيف نكتشف عدداً خاصاً قال غيرنا غيره ووافقنا عليه القليل ! ثم كيف يجوز للمؤلف أن يرفض قول أكثر أصحاب السير والتاريخ والتراجم ويتبع الأقل ، أهو حب الشذوذ ، أم حب التحرى ؟ فإن كان حب التحرى فليس طريقه اتباع الأقل وإنما طريقه الاجتهاد الحقيق والاستقصاء الفكرى والاعتماد على العلم والذهن فى البحث والتنقيب ، وكل هذه أمور لا يدركها الناقد ولا يحسها فى تأليف الشيخ باسلامة .

ومثل هذا قوله فى الصفحة الخامسة إنه تتبع من تسمى فى عصر النبى محمداً لأجل النبوة وأحصاهم ستة عشر،ونحن فى ريبة بينة من هذا الإحصاء الذى لم يقل لنا المؤلف ما مزيته فيه ؟ وهو أمر مذكور حتى فى أبسط كتب التاريخ وأقربها متناولا إلى اليد !

وجاء فى الصفحة نفسها : « ولاحظت على كل اعتراض جاء من بعض المستشرقين والمبشرين وإلالحاديين والماديين والمشككين فى صحة كتب الإسلام وتاريخ العرب والطعن فى سيرة سيد العرب ونبى الإسلام الخ » ونحن على ريبنا فى صحة هذه الدعوى الجوفاء ، نرى أن هذا الاسلوب الذى يتكلم به المؤلف إنما هو أسلوب المبشرين والمشككين أنفسهم ، حيث

يسوقون هذه التسميات لصاحب الشريعة الاسلامية لوضع حد قصير لرسالته العامة ، فهو عندهم سيد العرب ونبي الإسلام فقط ، ليس إلا ! ومعنى هذا أنه المبعوث للأمة العربية فحسب، والمرسل الى المسلمين فى حدودهم المحصورة والمسلمون فى عرف هؤلاء هم الصابئة والذين كانوا على ملة ابراهيم واسماعيل من عرب مكة وما والاها ، وإذن فليس محمد بمرسل إلى اليهود والنصارى وأصحاب الشرائع القديمة الأخرى ، وإنما هو نبي العرب ورسول المسلمين فقط ، أو « سيد العرب ونبي الإسلام » كما يسميه مؤلفنا المبارك فهذه هى الخطة المرسومة لتحديد مركز نبوة محمد عند المبشرين والمشككين وإنك لتقرأها صريحة فى كتب الآباء اليسوعيين ونشرات المدرسة الكاثوليكية كما تقرأها فى كتاب « حياة سيد العرب » تأليف الشيخ حسين باسلامه ، لا فرق ولا امتياز ، فيا للبضاعة المزجاة يعرضها الشيخ باسلامه فى معارض الفكر وفن الملاحظة والدفاع عن الاسلام ورد شبهات المشككين ! ويا لغفلة المؤلف عن أشد أغراض التأليف عنده أهمية واهتماما ! !

الآن فرغنا من نقد خطبة الكتاب أو فاتحته ، ونحن فى ريب عظيم يخامر نفسنا من أن هذا وحده ما يجب أن نلاحظه وننقده منها ؟ ؟ وهى بعد خمس صفحات من القطع الصغير ليس غير .

نقد المقدمة

عقد المؤلف مقدمة كتابه لبيان أصل العرب ومساكنهم ثم استرسل فيها حتى انتهى من الكتاب ، فأصبحنا لا ندرى والله أين تنتهى هذه المقدمة

وأين يبتدىء بعدها الكتاب ، ولا ندرى أكتابه كله عبارة عن هذه المقدمة أم هذه المقدمة هى نفس الكتاب ؟ ؟ كل ذلك محتمل وجائز ، وهذه أكبر ظاهرة من ظواهر الفساد وعقم الصناعة فى فن التأليف ، فقد كتب تحت عنوان المقدمة كلاما يسيرا عن الجزيرة العربية وأهلها الأقدمين فى ثلاث صفحات من الكتاب ، ثم عاد بعدها فعقد الفصول الآتية بهذه العناوين كما ترى : عاد ـ قريش ـ حضارة العرب ـ ملوك العرب ـ علوم العرب ـ ديانة العرب ـ التشريع عند العرب ـ أيام العرب ـ حروب العرب ـ أسواق العرب ـ أخلاق العرب ـ سيد العرب . الخ

فتعال أيها القارىء الكريم نتساعد على الفهم : أعاد وقريش وحضارة العرب وملوك العرب مما يندرج فى الكلام عن أصل العرب ومساكنهم وتدخل فى ذلك بقية الفصول الآتية أيضاً إلى فصل « سيد العرب » ومنه يبتدىء الكتاب ؟ وهل هذا ما قصده المؤلف بالوضع ؟ أم يبتدىء الكتاب من فصل « عاد » وتنتهى المقدمة فى تلك الصفحات الثلاث ؟ اللهم إن هذا لبس فظيع لا يحله إلا كلمة يقولها المؤلف نفسه يتبين منها الخيط الابيض من الخيط الأسود فى كتابه الذى أصبح صاحبه بوضعه العقيم أشبه المؤلفين صفة براكبى الأهوال ، الذين يقول عنهم القرآن الكريم : « لتركبن طبقا عن طبق » وأصبح كتابه هذا أشبه بالوادى الذى يقول فى وصفه رؤبة بن العجاج :

وقاتم الأعماق خاوى المخترق مشتبه الأعلام لماع الخفق
يكل وفد الريح من حيث انخرق شأز بمن عوه جدب المنطلق
ناء من التصييح نائى المغتبق تبدو لنا أعلامه بعد الغرق
فى قطع الآل وهبوات الدقق خارجة أعناقها من معتنق

هذا حقاً أبلغ وصف للكتاب الذى نتولى نقده ، ومن شاء الاستزادة فى فهم هذه البلاغة فى الوصف ، فإنا نحيله إلى شرح هذه القصيدة أو هذه الأرجوزة البليغة فى وصف ذلك الوادى اللعين ، فى سلسلة أراجيز رؤبة العالية المطبوعة فى كتاب « أراجيز العرب » للبكرى .

وبعد فإن حضرة مؤلف « حياة سيد العرب » يقول فى مقدمة الكتاب إن كتب التاريخ والأنساب المتعلقة بأصل العرب وتقسيمهم تحتوى على أقوال كثيرة ، فقد لخصت منها ما يأتى بعد جهد كبير وفحص دقيق .

فإذا شاء القارىء أن يعرف ما هو كبر الجهد ، وأين هى دقة الفحص فى عمل هذا المؤلف فعليه أن يستعمل المنطق فيضع أمامه القضية الآتية :

يقول المؤلف قبل الجملة الآنفة إن « الاعتماد - فى تأليف التاريخ طبعاً - عند المتقدمين على الكتب المدونة ، وعند بعض العصريين على الآثار القديمة »

هذه مقدمة القضية الأولى من استنتاجنا ، أما المقدمة الثانية فهى هذه الجملة التى يعتذر بها المؤلف نفسه أمام قراء كتابه فيقول « إن أمر التنقيب عقيم فى جزيرة العرب »

والنتيجة ؟ !

لنستخلص نحن النتيجة المعقولة بمنطقنا تاركين استنتاج المؤلف ، وعليه فإن النتيجة المنطقية هى ان المؤلف اعتمد طبعاً على الكتب المدونة ! فنقل من كتاب رواية ، ومن ثان مسألة ، ومن ثالث حادثة ، ومن رابع رأيا ومن خامس فصلا برمته ، وهلم جراً ، وضم كل ذلك إلى غلافين أزرقين وسمى المجموع « حياة سيد العرب » ووضع تحته اسمه الكريم كمؤلف ، ثم هذا هو الجهد الكبير ، وذلك هو الفحص الدقيق ! فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر !

أما إذا شئت أيها القارىء الكريم أن تنصب من نفسك ناقدا فتحاسب المؤلف على ما كتب فإنك لا ريب داخل فى عداد من يقول فيهم فى صفحة ٩٦ :

« فعلى الماديين والملحدين ومن على شاكلتهم أن يهدئوا على أنفسهم ويعترفوا بجهلهم ويخففوا من حماقتهم ويتركوا عتم الكون لأهله ! ويدرسوا مواقع الجهل قبل كل شىء من أنفسهم ، ويقنعوا بفشلهم ! ويتجنبوا مكابرة الحقائق ، لأن العالم المفكر كلما توغل فى العلوم ظهرت له بواسطة العلم أشياء عظيمة كبيرة لم يصل إليها علمه ، ولم تحط بها مداركه ، ولذلك يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه « كلما ازددت علما زادنى علما بجهلى ! ، ولكن ماذا نصنع فى هذا الزمن الذى كثر جهله ، وخرج عن مبادىء الإيمان معظم أهله ، وأصبح الجاهل عالما والأحمق مفكرا والمكابر فيلسوفا والغبى استاذا والمتهوس ، باحثا والوقح حرا ، والجعجاع خطيبا ، وشغلوا الناس بسفسطتهم وتكاثروا بغوغائهم ، فلا داعى منهم ولا مجيب ، ولا منصف فيهم ولا أريب لا يسمعون ولا يعقلون وهم عن الحقيقة غافلون »

قصة الانتقام الطبعى

بقلم محمـــد نور الجوهرى

المطبعة الشرقية بجدة عام ١٣٥٤ هـ

نشطت حركة التأليف والأدب فى هاتين السنتين نشاطا جيداً محمودا يغبط ويدل على حياة ونهضة صحيحة ، ويبشر بمستقبل حسن فى عالم الأدب، فقد رأينا فى السنة الماضية عدداً من طلبة المدارس يوالون اصدار مجموعات خطية دورية ضمنوها أحسن ما كتبوه ،وأجود مافكروا فيه ، فكانت مثالا عاليا لما عند هؤلاء النشء من أدب وتفكير ، ثم أعلن لنـــا الاديبان الفاضلان عبد السلام الساسى ومحمد سعيد خوجـه — وهما من غير طبقة الطلبة — أنهما سيقومان — على انفراد طبعاً — بطبع مجموعتين تحوى شعر أدباء الحجاز ونثرهم كما فعل الأديب أحمد عبيد فى سوريا ، وكان غرض الخوجه جمع أدب الشباب من طبقة الآشى والعمودى وشحاته وعرب ومن الى هؤلاء ، وغرض الساسى جمع أدب الناشئين الذين لم تزل تضمهم المدارس بعد ، وقد يضاف اليهم غيرهم، وهما يعنيان طبعاً جمع نماذج حسنة من أدب أولئك وهؤلاء ، والعناية بنشرها ونسجل فى هذه الفرصة شكرنا لاهتمامهما المحمود،مقدرين لهما هذه الجرأة والنشاط والغيرة الأدبية فى هذه السبيل ، ونرجو لهما تحقيق هذا الأمل وظهور نتائجه .

والآن فى هذا الشهر أبرز فعـلا إلى عالم المطبوعات حضرة الأديب

الفاضل محمد نور عبد الله الجوهرى خريج المدرسة الفخرية بمكة قصة باسم « الانتقام الطبعى » ، وقد تفضل باهدائنا إياها فنحن شاكرون له هـــذا الفضل الجميل .

وقد قرأناها للمرة الأولى وهى فى تسع وثلاثين صفحة من قطع صغير فخرجنا منها بنتيجة لا تتصل بالفن ولا تصعد فيه إلى مرتبة ترضى ذوق الاديب الممتاز ، غير أنه بالنظر إلى شخصية الكاتب ومبلغ محصوله من هذه المعارف المحدودة التى تسمح بها مدارس الحجاز الابتدائية ، لاسيما التى منها فى صف المدرسة الفخرية، وهى مدرسة لم تبلغ الحد الوسط بالنسبة للمستوى الذى فيه مدارس الحجاز ، وبالنظر أيضا لأن هذا القصة هى باكورة عمل هذا الكاتب الفاضـــل ، فإنها لا تعاب فيما جاءت عليه من هذا الثوب الذى أبرزها فيه .

أما هيكل القصة فهو ما يأتى : شاب من أهل الطائف يدعى « نجيبا » ترك له والده ثروة بددها وداراً باعها أخيرا لأن الحاجة ألجأته ، وخانه صديقه « سليمان الأنقرى » فسرق قيمة الدار وسافر ، واكتأب الفتى حيناً ثم ساقته الظروف إلى طبيب جمع — فيما يؤخذ من حديثه — بين الطب والفقه وسمو الخلق ، فبث له نصائح ودروسا فى الحياة ، ثم زوجه بابنته ، فشفى الفتى من آلامه النفسية ، ثم التقى صدفة بصديقه الخائن فى مستشفى اجياد طريحا مصابا بالزهرى ، وكان هذا هو « الانتقـــام الطبعى » منه لما جنته يده .

ويلوح من هذا الهيكل أن للمؤلف عقلية الروائيين ومقدرة المناطقة

وإن كان أسلوبه فى الرواية جد بسيط ، غيران أسلوبه فى سرد الحوادث أسلوب طبعى محكم معقول يدل على ذهنية قوية تعرف كيف تربط المواقف بعضها ببعض،وكيف تخرج النتائج الطبيعية من مقدماتها الطبيعية . وفى القصة تجـــد « المثل الأعلى » حسب ما تعرفه غرائز الكاتب ، ووجود « المثل الأعلى » الذى يجب أن يقيمه كاتب القصة — أية قصـة كانت — ضرورى لازب، وهو فى هذه القصة ،الرجل المتين الخلق، الأمين على صناعته ،المتمسك بأهداب الدين والاستقامة ، المتسامح الذى يصفح عن الشر ويسعى لإنشاء سبل الخير .

وقد راعنا فى الرواية — أو القصة — عدة نواح فى فكرتها ، ومن أجل ما استفز إعجابنا تنديد المؤلف بالدجالين والدجالات من المتطببين والمتطببات الذين يقصدهم الناس للاستشفاء على اعتقاد أنهم « من أولياء الله » وما هم من أولياء الله ، ولـكنهم قوم نصابون أو نشالون « ص ٣٢ » وكنا نحب أن يقف المؤلف عند هذ الحد فى وصفهم،غير انه وصفهم أيضـــا بالشرفاء بعد كلمـة النشالين ، ولـكن أنى يعرف النشالون والنصابون طريق الشرف ؟ وكيف تهتدى اليه نفوس الدجاجـلة الآثمين ؟ فإن الشرف أبعد ما يكون عن هذه الطبقة من النفوس الشريرة التى تخدع الناس باسم العلم والدين معا ، ولـكن يحسن بنا أن نؤول كلمة المؤلف تأويلا حسنا أغلب الظن عندنا أنه هو نفس المعنى الذى قصد اليه ، وذلك أن الدجاجلة « شرفاء » فى ظاهر أمرهم فحسب،أى أمام العدالة التى لا تصفهم فى صف المجرمين ، فهم لا يطولهم عقاب القانون الذى لا يضع يده إلا على الجرائم

المكشوفة ، أما تلك الجرائم المغطاة فإنه يمر بها غير مكترث ، ولكنها هى فى الوقت نفسه تنفث سمها غير مكترثة ! ولكم فى الحياة من مواقف دقيقة يرتكس فيها قانون العدالة بحقائق مستورة لا يباح التعرض لها إلا إذا برزت فى الشكل الإصلاحى .

وليس هذا الموقف بأروع ما فى الرواية ، فهناك موقف آخر تتغلب فيه الإنسانية الكبرى فى شخص « نجيب » بطل القصة على رذائل الحقد والخيانة والانتقام الانسانى فتسحق بأقدامها هذه الشرور ، وتقف فى وسط زوابعها الثائرة كالطود الأشم لا تؤثر فيه الاعاصير ، وذلك عندما يزور البطل « مستشفى اجياد » فيجد صديقه القديم سليمان الذى خانه مريضا بالزهرى على أثر علاقته بإحدى المومسات ، فتنسل أحقاده من قلبه الكبير ويقف إزاءه راحما راثيا عافيا يقول ! « شفاك خالق الشفاء ، وأعاد اليك صحتك ومتعك بها . وخذ هذا » يريد مقدارا من النقود ، واقض ماتشتهيه وتحتاجه ، ثم يخرج من المستشفى قائلا فى همس ! (هذه هى أضرار النجاسة وعاقبة الاستهتار والتلاعب بالعفة ، وهذا هو الانتقام الطبعى الالهى قبل الآخرة ! .

وفى الرواية نظريات اجتماعية سديدة من لباب علم الاجتماع ، ومن لباب الدين الاسلامى الحنيف ، يبثها المؤلف فى أسلوب خطابى يعرف طريقه إلى النفوس ، كنظرية جواز رؤية الزوجة قبل العقد عليها ، ونظرية وجوب تسهيل الزواج على الأعزاب بالرضى بيسير المهور ، وفيها نصائح صحية فى قالب روائى مقبول.

ولا تخلو القصة من هنات لغوية معدودة يحسن بالمؤلف أن يتداركها فى الطبعة الثانية ولو بواسطة أحد أساتذته — فإنه طالب كما أشرنا — ويحسن بنا أن ننبهه اليها بهذا الإيماء، لأننا فى موقف تشجيع واغراء له بالسير فى سبيل الأدب.

ونريد هنا أن نلفت نظر أولئك المتعصبين الذين لا يرون فى مثل هذا الأدب الجميل ما يغذى ايمانهم بوجود الأدب القوى فى أمثال هذه الآثار. ولكنهم ربما كانوا معذورين فى ذلك، لأن ملكاتهم محدودة، فهى تضعف عن استكناه معالم الأدب القوى وأعراضه بين القوالب اللغوية الناثرة.

رسائل

ذكريات...

عزيزى الأخ...

فضضت الغـــلاف طبعا وبدأت تقرأ. الخط غير مألوف لديك فيما اعتـدت قراءته من الرسائل التى ترد اليك، واللهجة أيضا لعلها غريبة عنك بالقياس إلى ما تتولى تلاوته من أوراق الخطاب، فتنزل بنظرك إلى التوقيع ثم تعود للقراءة. أجل يا أخى هو ذاك، ولم أبادرك بالكتابة؟ ولم لا تكون ذكراك من مشاغلى؟ ففى الوقت الذى ينصرف فيه إلى تلمس ملاهى الحياة أو شواغلها أو مهماتها مما يحفز النفوس إلى عيشة محتومة متشابهة المسالك دافعة إلى الاستمرار فى مجاريها، لا تحيد بك الصدف أن تجد انسانا يذكر - فى هذا الصخب - صور حياة له غابرة طوت بين صفحاتها أحاديث أصدقاء كان ينهل منها لذائذ الأنس والتودد، ويستشف من ملامحها الجميلة ما تحمله النفوس من خلق رحب وثيق الصلة بحياة الجد.

وهبها بساطة أن أكاتبك الآن فى موضوع الذكرى لما مر! فما أروع ان تكون الحياة بسيطة على الأقل، فالبساطة معنى لا يتصل بالسذاجة البلهاء فيما أظن إلا فى المظهر، وقلما يؤخذ اتحاد المظاهر فى الأشياء دليلا على اتصالها فى الجوهر.

ترى أتذكر أحاديثنا على شاطىء بحيرة «باب جديد» مع الأستاذ...؟ وأستثير فيك الذكرى بنوع خاص إلى حديث كان نصيبه من الجد وافرا إذ كان يتناول فلسفة الفرق بين الاتقان والكمال، وكنت ترى ان اللفظة

الأولى أوفى استقصاء لمعنى « التمام » من الثانية ، وتبسط رأيك فى صراحة وتشرح وتستدل ، بينما أخالفك النظر عاكسا ، ويطول بنا الحديث ويمتد الوقت وتطبق عجاجة الليل والاستاذ يدخن سيجارته ويحدق بعينه ، وهو فى نفس الوقت لا ينسى أن يعزف موسيقاه الخاصة عند اللزوم ، وكم لهذه الموسيقى من أثر على الجو فى حالة ركود الهواء ، ثم يهجم على الموضوع فيميل إلى رأيى ويحل المشكل حاكيا أناة المفكر ، واتزان العاقل ، وجرأة البطل ، ومنطق العالم ، فى بطء حديث المدخن ولطف الصديق ، ثم تختم الجلسة وتقوم . وليست بالمتواترة ولا الكبيرة هذه الجلسات ، ويكفى لبيان ندرتها أنى لا أذكر الآن منها — غير مامر — إلا جلستنا فى احد الأيام بعد مغرب الشمس ، وقد هم شبح الضياء أن يفنى فى الأفق ، وأوشكت حلوكة الليل أن تدب إلى وقدة الشفق المبسوط على صفحة الغرب ، وكنا فوق رابية صغيرة فى خارج « باب مكة » نفيض فى نقد الأزياء الحجازية ، ونستهجن فيها عدم التناسب ، ويقر الرأى أخيرا على استحسان الزى الافرنجى الخصيف ، وأريد أن أقول إن الاستحسان كان للشكل فقط لا للاتخاذ ، وأنت خليق أن تميز الفرق الدقيق بين استحسان الشكل لخفته وسهولته ، واستحسان الاتخاذ بالنسبة لنا نحن الذين ما زلنا نقوم ونقعد للنظريات ، ومنها نغذى حياة لم يحن بعد أن يغذيها « فن العمل » وقد كادت تتضخم « بفن الكلام »

وبعد فإذا عدونا ذكر هذه الأحاديث فإنى أغبطك على الالتذاذ الضئيل بحياة التنزه فى « باب جديد » مع . . . صديقنا وصديق الطبيعة التى ما يفتأ يناجيها كل يوم على شاطىء بحيرته حيث يزخر أمامه البر الفسيح

فى شمالى « جدة » وشرقيها بما يوائم طلب النفس راحتها بعد بذل مجهودها وتقيدها بما لا بد منه من مشاغل العيش ، فتمتلىء العين بحركات المتنزهين فى منطلق الهواء غادين ورائحين، وسكون الماء وزرقته الكامن فيها معنى أساس الحياة الذى يقول عنه القرآن الكريم: «وجعلنا من الماء كل شىء حى» وهنا تكتظ النفس بصور تود على اثر وضوحها ان لو يتاح لها النظر إلى ما وراء حركات الأمواج الهادئة لتدرك كيف تدب من هذا الماء إلى الحيوان والنبات والانسان حياة طبيعية تدع المرء يغوص بفكره فى عوالم الانتباه فيزداد شعوره بمقدرة المبدع العظيم الذى أعطى كل شىء خلقه.

وأخيرا أودعك ياعزيزى مكررا اليك وإلى الأخ ... الذى أرجو أن تتلطف فى إهدائه تحياتى بدون أن تزعجه بذكر موسيقاه الخاصة الآنفة الذكر، وإذا تفضلت بسؤاله: لماذا لا يرد علىّ حين أكتب اليه ، أكون لك من الشاكرين .

شئون

أخى فلاناً

كيف رأيت أثر الحياة الأدبية فى كتاب العقاد الجديد ؟ وكيف ألفيت مقدرة هذا الأديب الحى على فتنة النفوس بقوة ساحرة يذرها قلمه الجبار سواء حين ينقد مهاليس الأدب ، أو حين يتغنى بالحياة فيعرض جمال ما فيها على القارئين ملموسا مكبرا ، أو حين يعالج مواضيع الفكر بصبغة الفلسفة الصادقة فيوغل فى البحث رابطا بين أوصاله ؟ وكم بين أمثال هذه المتع القوية التى تواجه فيها الطبع فتشق بتفوق مقدرها ومتانتها لا لشىء سوى رهف الشعور وقوة الذهن وعمق النفس ونفاذ البصيرة ، وبين كثير من الأكداس المموهة مما لا حياة فيه سوى الاصطناع وإحكام التقليد وفساد الذوق وقصور الهمة عن الاعتماد على قوى النفس ، وأعنى من ترى حولك من قردة المتأدبين الذين إذا أعوزتهم سلامة الطبع ومقدرة الفكر على تصوير المعانى ففاتتهم بذلك قوة الفن صاروا إلى تقليد الكتاب فى أقوالهم ، وانتحلوا لأنفسهم الفقيرة أفكارا وتعابير سبقهم إليها أصحابها فما يزيدهم هذا التقليد إلا طمسا فى النظر ، وهزيمة فى معركة الحياة النفسية وانحدارا بالنفس إلى أسفل دركات الخذلان ، ولا يكون فلان بالنسبة لهم إلا بطلا عظيما ، إذ هو يترفع بنفسه عن إسفاف الخالعين على أنفسهم صفات الآخرين ، وذلك بالرغم مما له من الرأس الغريب الذى انهكته الأقدار . . .

هذا الرأس وصاحبه شيء ذو قيمة يقدرها الفكر إذا قيس إلى أولئك المفلسين فى الأدب ، وخذ لك مثلا منهم فلانا ، الانسان الميكانيكى ، أو الأديب على نفقة السرقات .

ولعل فى هذا التعبير « الانسان الميكانيكى » شيء من الغموض ، فلكى أشرح لك معنى هذا اللقب ، أقول إن الأديب الحقيقى هو الذى يدير بنفسه حركة الحياة ويفكر بنفسه فيما حوله من المظاهر التى يستنتج منها المعانى والصور والأفكار ، كما يستنتج الشاعر تناسب الجمال وتشابك أجزائه فى الطبيعة مقدرا ذلك السحر ، محسا بروعته التى تملك عليه نفسه فيفيض عن تلك النفس الحية أثر ما أحست وما فهمت من محاسن الطبيعة وجمالها ، ومن روعة الحياة وهولها ودقة ما فيها من السحر . أما صاحبنا هذا فحسبه أن يأكل من مائدة غيره ، فهو حائر فى الأدب ، لا يدرى وقد عجز عن ملكة الاستقلال : ايتقمص حياة المازنى أم حياة ميخائيل نعيمه أم حياة الرافعى ؟ أم يمسخ نفسه عقادا آخر ، أو منفلوطيا جديداً ، أو « أناتولا عربيا » جاهلا ، ينقصه علم « أنا تول » الفرنسى وأدبه ولباقته ، فقد عذب المسكين نفسه وهو يقلبها فى عدة مناصب شخصية مستعارة يمثل فيها جهلا ، أحد هؤلاء أو هؤلاء جميعاً ، أو جبران وحده ، فيأخذ من هذا تعبيرا بجملته يلوكه بألفاظه حتى يمرن لسانه عليه ، ويختلس من غيره فلسفة بتراء لا يدرى مداها ولا بعد غورها ، فيبنى حولها جملا يؤديها مكررة ناقصة كسيحة ، وأحيانا متناقضة ، وينتهب من آخر بعض أخلاق تقليدية قرأها عنه ، وينتحل لنفسه حياة وفكرة كانت لهذا أو لذاك ويقدمها إلى أصحابه الذين لم تتح لهم أوقاتهم الاطلاع على آثار أولئك أو غيرهم ، وأظنهم

لو اطلعوا لكانوا أوثق صلة بكرامة النفس من أن يقفوا موقف القردة فيدعون ما ليس لهم منه شيء إلا اللجوء إلى المحاكاة ، ويالها من حياة مسخاء أحر بها أن يبصق فى وجه صاحبها وأن يرصد اسمه فى سجل المبغاوات ، فقد فاتته ميزة الانسان فى الحيـــاة فراح يتطلبها بالتقمص فما أدرك غير الامتهان .

وما ظنك بمن ينتحل لنفسه كلام الآخرين متوارياً عن أعين الناقدين ؟ ألا يكون أقرب شبها بالقرد الذى أبصر النجار أو النشار يشق الخشب فغافله وصنع مثله فجرى له ما جرى مما ترويه الحكاية المشهورة ؟

كنت مرة مع أحد عارفيه فجر الحديث إلى ذكر رجل ثقيل ،فقال هذا العارف يبدى رأيه الخاص فيه : أقول لكم الحقيقة: إن رأيى الخاص فى الحياة هو أن أثقل الناس عندى وأضناهم لقلبى دميم يتحالى ، وذكى يتغابى ، وعجوز تتصابى ، فانفجرت ضاحكا وبدهته بما لم يكن فى حسبانه وقلت أهذا رأيك الخاص فى الثقلاء، أم هذا مسخك لشعر شاعر شهير ؟ فوجم وقال بحرارة : من ؟ من ؟ أى شاعر هو؟ قلت : العقاد ، انظر ديوانه صفحة ١١٢ ، فبهت لأنه لم يطلع ، وقال يا أخى أنا سمعت هذا من « فلان » فقهقهت مرة أخرى حتى ملت إلى الوراء ، وقلت : حسن ! فكيف جاز لك أن تنسبه إلى نفسك ما دمت سمعته من فلان ؟ فأجاب : ما دام فلان وهو من الأدباء خدع نفسه ونسبه إليها ، فأحر بى وأنا لست من الأدباء !

وبعد فقد أطلت عليك الحديث . وأخيرا أرجو مواصلتى برسائلك والسلام .

مناقشة ...

عزيزى !

جليلة هى المناقشة التى أثرتها حول قول بعض الكتاب : « فلانة بارعة فى الجمال » ، والتى كانت قد أوصلتك إلى حيث وجدت ذوقك يزورُ عن اقتبال هذه الصورة المستنكرة من التعبير ، ويعتبرها مقبحة من مقابح الفكر أو موقفا للكتاب أجدر مايقال فيه انه دليل الغفلة والذهول عن وضع الكلمات مواضعها التى يؤخذ منها مدلولها بوضوح وصحة ، إذ ما معنى أن تبرع الفتاة فى الجمـــال ، وما الجمال سوى رداء الطبيعة المنسوج مع الدم ؟ وليس فى مستطاع الجميل أن يتصرف فيه إلا إذا قصد منه جمال الأصباغ والتحاسين الذى انما يرجع الأمر فيه إلى مقدرة صاحبه .

هذا الفكر جد سائغ ، وانى أشاركك الاستنكار ، فأعد من يقول ذلك كمن يقول : ، فتاة ماهرة فى الطول ، أو قديرة فى القصر أو حاذقة فى ليونة الأصابع ، كأنما الطول أو القصر او ليونة الأصابع أو الجمال العام رقصة من رقصات « الشارلستون » أو لعبة من لعبات « التنس » أو درس فى الرياضة أو الموسيقى أو تدبير المنزل يتسع فيه المجـال « للبراعة » والمقدرة والحذق وهذا هو مكان الخطأ فى استعمال تلك الصورة من التعبير .

هذا الاعتراض جميل جدا توجيهه على تلك الفئة من الكاتبين ، وهو اعتراض فنى مرجعه الذوق ، ولـكن أى ذوق ؟ إخالنى أحسبه الذوق

الذى لم يتغلغل بعد فى اكتناه أسرار اللغة الرائعة، وإن للغة العربية لأسرارا رائعة أيها الصديق ! ترتهن أحيانا بحرف واحد كحرف الجر مثلا يجعل الكلمة تختلف فى أداء المعنى ما بين تعبير وآخر . فذوقى وذوقك فى مج هذا التعبير قد وفقا التوفيق كله ، ولكن من لنا بمن يضمن سلطة الذوق على اللغة فى غير هذا التعبير ؟ ؟ ولنمش خطوة فى متابعة الذوق فى منطقة نجده ينهزم أمام سلاح اللغة الماضى عندما ترفع كلمة « فى » من التعبير السابق فنقول : « فتاة بارعة الجمال » أو « ذات جمال بارع » ، وليس بغائب عن فطنتك فرق مابين هذا التعبير والتعبير الأول ، فبراعة الانسان فى الشىء غير براعة الشىء بنفسه ، فالأولى هى نفوذ الانسان فى استحصال التفوق فى أمر ما، والثانية تؤدى معنى آخر صحيحا لاصلة له بالنفوذ الشخصى ، وإنما يكون هنا مرادفا لمعنى الجودة الفائقة البريئة ، ويأخذ التعبير فى هذه الحالة مكانه من الصحة مثل ما نقول : « نصوع البياض ، وسمو الحقيقة ، وقوة الخلق ، وبروز الشخصية ، وتفوق الذات ، وغزارة المادة ، واشتداد الطبع » ، فكل هذه التعابير من نمط « براعة الجمال » الملحوظ فى قولهم : « فتاة بارعة الجمال » ، هذه البراعة التى انما معناها جودة الجمال الفائقة وظهوره فى شكل يستحق الاعجاب. ألا ترى هنا معى ان الذوق خضع للغة؟ فإذا جاء الذوق يتفلسف هنا أو يحاول رفض هذا الاستعمال أيضا ، وهو جار على نمطه الصحيح ، تصفعه الفصاحة وترسل اليه بهذه الأمثلة الهائلة من جحفلها القوى المسلح بسلاح الصحة وسلاح الجمال نفسه ، فترغمه على التسليم والاندحار ، أو تمدها إذا شاءت بما من حقه أن يجعل فلسفة الذوق هذه أضحوكة لأنها لاتكون حينئذ إلا فلسفة المعابثة والخواء .

هل يتازم الأدب ؟؟ ...

جاءتنى الرسالة الآتيةمن مستفسرأديب لم يوضح توقيعه الكريم، وإنما كان امضاؤه متشابك الأحرف، متلاحم الأجزاء، متعاظلا غير مستبين على حالة لم أستطع أن أحلها، لمافيه من تعقيد وتعاظل، وكان واجبا أن يكون غير ذلك ليكون الجواب أكثر دقة ووفاء وسعة، فعلى قدر السؤال طبعا يكون الجواب وإذا تستر السائل واحتجب فمن الطبيعى أن يحتاط الجواب ويمشى الهوينى «كما يمشى الوعى الوجل!»....

وبعد فلا نضيع الوقت عبثا فى المقدمة. قال السائل فى رسالته: «هل تعتقدون بوجود أزمة فكرية وأزمة أدبية فى الحجاز؟» ونقول فى إجابته:

«الأزمة الفكرية» و «الأزمة الأدبية» موجودتان، وهما يتولدان فيما أظن من الأزمة الهائلة أزمة النفس الانسانية، وإن شئت فقل أزمة الإحساس المطبقة، حيث يؤمل الانسان ويتمنى، ولكن لايتاح له تحقيق آماله، ونيل أمانيه، وحيث يحب أن يقدم على الرغبات المستحبة، والمقاصد الكبيرة فلا يستطيع إلا الإحجام والوقوف، وحيث يبحث فلا يهتدى، ويهرب فلا يلتجىء، ويريد أن يستخدم استعداده النفسى فلا يتمكن.

إذا استحكمت هذه الحالة فى فرد أو فى جماعة فهنا أزمة الفكر وأزمة الأدب، أو ما تسميه «الأزمة الفكرية» و «الأزمة الأدبية» وإذا آمنت أن هنا من النفوس ما يشكو هذه الحالة ويرتاح إلى تحطيمها فآمن أن هنا

أزمة فكرية وأزمة أدبية ، لأن الفكر مظهر من مظاهر النفس ، فإذا أزمت النفس أزم الفكر، والأدب إحساس وتعبير ، فإذا نضبت النفس الانسانية نضب احساسها ونضب معه تعبيرها ،وعندما تكبر النفس تكبر أفكارها وآدابها، ومتى ضاقت وصغرت صغرت الافكار أيضا وصغر معها الأدب ، ولهذا فإن أرقى الامم إنما هى أرقاها تفكيرا وأدبا،واحطها هى أحطها فكرا وأدبا، فلا ترج من الزنجى والبربرى وساكن الاسكيمو وما إلى هؤلاء من الهمجيين والمتوحشين ان يكون مفكرا أو أديبا راقيا لأنه منحط فى نفسه ومرجع هذا الانحطاط تأخر محيطه ،وتربيته وأحوال معيشته وصغر آماله ، ونضوب أمانيه ، وانحلال أخلاقه ، وانحداره إلى همج متغور فى همجية النفس والعقل لا يسمح له بالصعود إلى المكان المشرف على رياض الحياة، فهو لا يعتد بنفسه ولا يشعر بكرامته العامة العليا،فينشا مع هذا عدم اعتداده أيضا بطرائق الفكر والاحساس،فهو فى أزمة هائلة ، وقس على الفرد الامة بأسرها ، فالرجعية والهمجية فى الامم والافراد هى « ترمومتر » التفكير والأدب ، من صعوده وهبوطه يتبين مقدار درجتهما ونسبتهما،فإذا كانت همجية الامة هابطة إلى أقصاها ، كان تفكيرها وأدبها هابطا معها والعكس بالعكس ، وفى مكنتك أن ترجع إلى ما كتبناه فى حديثنا مع السائح الاندونوسى المثبت فى هذا الكتاب حيث كنا نهيىء الجو للسائح لينطق بما نحب أن يدور عليه حديثه لتكون أجوبته صورة صحيحة للفكرة التى نقصدها عن الحياة الفكرية ، فإنك واجد فى تلك الأجوبة المتعددة جوابا مبثوثا تستفيد منه فى موضوع سؤالك القيم .

وبعد ففى ذكائك أيها السائل الأديب ما يلائم هذا الايجاز وتقبل احترام المخلص .

القديم فى الجديد .

الشيطان العاشق (١)

— حبيبتى ! حبيبتى ! ألا رحمة بالله أيتها اللهب الجميل ! رقى لمن لو فارقك لحظة لسدت عليه منافذ الحياة السعيدة، ألا رحمة بالله أيتها الحبيبة الطاهرة .

— من ؟ من ؟ وى ! من أين هذا الصوت الغريب ؟

— كلا لا تخافى ياسيدتى العزيزة ! فإن حياتك أثمن علىّ من نفسى المعذبة

— ويحك من أنت ؟ اظهر ! تكلم عن نفسك .

— أنا بين يديك ، قريب منك ، هدئى روعك ، عدينى بالثبات والتؤدة أظهر أمامك بكل وداعتى وإحساسى . لا تستعجلى .

دارت هذه المحاورة فى غرفة النوم وقد أرادت « عائشة » الاستلقاء على سريرها، وكان مكلمها صوتا خفيا تسمعه ولا ترى له من شخص ، ولقد كادت المسكينة أن تهلع من الوجـــل ، لولا أن تداركتها رحمة الشجاعة والعقل وساعدتها كلمات « الصوت » الأخيرة عـلى الريث والأناة عند ما قال لها : عدينى بالثبات والتؤدة أظهر أمامك بكل وداعتى وإحساسى ، لا تستعجلى »

ولـكن « الصوت » لم يبر بوعده ، ولم يزل مختفيا عن عين « عائشة »

---

(١) روى هذه القصة بأسلوب القدماء العلامة الشيخ داوه الانطاكى مؤلف التذكرة فى كتابه « تزيين الاسواق » الطبعة الثالثة بالمطبعة الازهرية سنة ١٣٢٨ ص ١٨٢ فاخترنا نسجها فنيا تلقيحا للأدب الجديد بالأدب القديم .

التى جمد الدم فى عروقها عندما فاجأها هذا المتكلم الغريب الشأن ، غير أنه كان رحيما بها فلم يشأ إطالة خوفها ففتح الباب ودخل ووقف أمامها ضاحكا فإذا هو زوجها .

— وى زوجى ! ألم تسافر فى المساء ؟ كيف ولماذا عدت ؟ وما حملك على تغيير صوتك قبل لحظات ؟ لقد كدت أجن لولا ان تداركنى الله .

— أجل سافرت ، ولكنى غيرت رأيى فاغفرى لى خطئى يا « عائشة » لقد روعتك من غير أن أريد ، لأنى أردت أن أمتحن شجاعتك . . . .

ولكن فى هذه اللحظة دخل زوجها الحقيقى فجأة ، وكان قد طرأ له ما تركه يعدل عن سفرة المساء ، والتقى الزوج « والمجهول » فتبادلا المحادثة بسرعة وصراحة وعزم .

فقال الزوج « فى انفعال » :

— من أنت ياسيدى ، وما شأنك هنا ؟

فأجاب المجهول « فى صرامة » :

— اسمع وتشجع . أنا جنى من بنى « الشيطان » لى ليلة ، ولك ليلة ، وإلا قتلتك ، فإنى أحبها . ولم يرالزوج المسكين بدا من الموافقة والاصطحاب مع هذا المجهول ، والإذن له مرغما بدخول البيت والمبيت مع عائشة إلى أن يصرفه أمر قوى .

وجاءه ليلة يقول :

— إنا معشر الشياطين نسترق السمع بالنوبة ، وهذه ليلتى ، فهل لك أن

وتهددنى بالضرب ، فمضيت ، وأنا على أسوأ حالة من البرد ، والجوع فدفعنى المساء إلى عجوز عليها سيمة الخير والشرف ، وإلى جانبها فتاة فاتنة فجعلت الفتاة تسخر بى قائلة :

ـ هل لك إذا نام الناس أن تدخل علىّ فأتحدث معك ؟ فإنى لم أر أحسن منك !

فأجبت فى يأس وتأثر .

ـ دعينى من هذا .

وأقبل أبوها وإخوتها ، فناموا بإزاء الخيمة وانتصف الليل ، فأغرانى الشبع والدفء فدخلت الستر ، فلما شعرت بى الفتاة قالت :

ـ من تكون ؟

قلت :

ـ الضيف

قالت :

ـ اخرج أيها (الهولة [1]) لا حياك الله ولا صبحك ! فخرجت فزعا فتلقانى الكلب الرابض على باب الخباء يريد أن يفترسنى ، وأنا أرده بعصاى حتى علق بردائى ، فتجاذبنا حتى سقطت أنا وهو فى حفرة لا ماء فيها واضطربت هناك فى رأسى الأفكار المريعة والتصورات القاسية .

استعرضت أدوار الحياة التى مرت بى ، والتى تمر بكل انسان يصاحبها فرأيت الطفولة ـ طفولتى وطفولة الآخرين — مرحا ساذجاً لا يعقل

---

(١) هو ما يخوف به الأطفال ، كالغوله ويقال أيضا لكل كريه المنظر

ولا يتدبر، ورأيت الصبا والفتوة أخيلة وسيعة متموجة، ليس فيها غير الحلم العذب والأمانى الطائرة، ورأيت الشباب آمالا وتفكيرا واستعداداً للخوض فى فلسفة الحياة، واستقبال ظلماتها الداهمة وألغازها القتالة، وتهجما نشيطا على حل تلك الألغاز والرموز، ولكن لا فائدة. فما قيمة الحياة إذن، وهى تمر بالمرء فى جهل مطبق، وغرور باطل، وشقاء عقل وأحساس ؟!

وشعرت «سمبس» بسقطتى فأقبلت حتى إذا رأتنى قالت:

— وددت والله أن أجعلها قبرك، لولا خشية الضرر.

وأخذت توبخنى، ثم أدلت لى حبلا وقالت:

— ارق.

فحين قاربت فم الحفرة انهارت من تحت أقدامها فسقطنا جميعا.

فلما كان الصباح، وافتقدوها، فلم يجدوها — وكان ابوها عارفا بالقيافة. أقبلوا بالسيوف والأحجار على قتلنا.

قال أحد الإخوة:

— اقتلوا الفاجرة! ها هى ذى هنا مع الضيف الخائن.

وقال الثانى:

— بل اقتلوهما معا، ولنبدأ بالخبيث.

وقال الثالث:

— ويمثلا بعد القتل شر تمثيل.

وقال الرابع:

ـ أهيلوا عليها التراب وأتبعوه بالحجارة

وقال الخامس:

ـ السيوف! السيوف!

فقال الأب:

ـ إنى أعرف من ابنتى مالا ريبة فيه. قفوا....

فأمسكونا وأخرجونا فأقبل على أبوها، فقال:

ـ أفيك خير لأزوجك ابنتى اتقاء الشهرة بمالا نريد؟

فقلت حين شممت الحياة:

ـ وهل عندى إلا الخير؟

فزوجنى بها على خمسين بكرة وأمة وعبد، فعدت إلى أبى فأخبرته بذلك فأحضر المهر فأقبلت به اليهم، فأخذوه، وبنيت بالفتاة.

« لميس »

رواية تاريخية ذات أخيلة جديدة

سنة ٧١٧ م — ٩٨ هـ

كان الوقت صدر الصباح المشرق ، عندما دخل سليمان بن عبد الملك الأموى غرفته الخاصة ، غرفة الحرم ، حيث كانت لميس إحدى حظياته تنتظره لتحادثه فى أمر يهمها ، وكانت دمشق ، المدينة التى هى مسرح هذه الرواية ، وقاعدة ملك الأمويين مائجة ساعتئذ بالجموع تودع الجيش المؤيد المستعد للذهاب ليفتح القسطنطينية،وكان الشعب نشوان للفكرة التى أخذت فى طبقاته أسمى مظاهرها ، ولم تخطىء طريقها أيضا إلى « نفس » لميس تلك الفتاة الجياشة بالعواطف والأفكار ، فوقفت تنتظر سيدها العاهل العربى لتحييه تحية الصباح ، وتصافحه مهنئة بهذا المجد الجديد .

مر سليمان من بهو الغرفة بعد أن قضى موقفه فى شرفة القصر يستعرض جيشه إلى حيث وقف فى غرفة النساء ، وهناك دخل عليه ابنه أيوب ، وهو قطعة من الجمال الانسانى المجسم ، غلام مرسل الشعر إلى أقصى كاهله تبتسم فى ابتسامته الحياة ، ويتنفس من نظراته الحسن المغمور بجرأة الطفولة واندفاعها وتفتحها .

وقف الطفل الجميل يجاذب والده الحديث عن رحلته الحربية .

— أبى تأهبت كما أمرت للسفر إلى القسطنطينية مع عمى مسلمة .

ـ سر على بركة الله يا أيوب، وستجد فى كنف عمك العز العائلى الذى لن يفارقك بمفارقة القصر ، كما أنك ستعرف فى هذه الرحلة أمورا تكون لك ذخيرة الرجولة ودربة المستقبل .

ـ ولكن يا أبى عمى مسلمة يقول إنه لن يجعلنى فى مقدمة الجيش

ـ إذن . . ؟

ـ إخاله سيجعلنى فى القلب أو فى الساقة أو فى أحد الجناحين .

ـ وما يضرك ؟

ـ لا يضرنى شىء ألبتة ، ولست أريد المقدمة ، لأنى ابن أمير المؤمنين ولكن ليتاح لى أن أخبر بنفسى للمرة الأولى كيف تكون ملاقاة العدو وجها لوجه، ولأعرف ما لذة الغازى المغامر الذى يتقدم فى طلائع العسكر غير مستكين إلى الاندماج فى هيكل جيشه كفرد يتوزع مافى نفسه من قوة الإقدام على الأفراد الذين أمامه ومن حوله .

ـ أنت تعلم أى أيوب أنك الآن جندى لا إرادة له أمام نظام الجيش ، وأمر القائد ، فحيثما يضعك قائدك فذاك موضعك ، الذى يجب عليك أن تكون فيه من غير أدنى مراجعة ، فإنما هى الطاعة العمياء يفرضها نظام الجيش على الجند للقواد .

ـ نعم يا أمير المؤمنين هو كذلك ، وإنى أنا الجندى الحقير الطائع الذى لايخالف أمر الخليفة ولا أمر قائد الجيش، سأكون عند ظنك بى ، فلتأمر بما تريده، ولتكن مشيئة عمى مسلمة قائدى العظيم واستودعك الله يا أبت .

ـ أستودعك الله .

قال الأب ذلك وقبل الطفل بين عينيه .

وقف سليمان بعد خروج طفله أمام المرآة بجانب « لميس » يتوسم أسارير وجهه الجذاب تحيط به هالة من المجد العربى ومجد الأبوة المنجبة وقال بصوت مرتكز

ـ أنا الملك الشاب !

وكان الملك السابع من الأسرة الأموية يومئذ فى الثامنة والثلاثين من عمره(١) ، فهو إذن فى ضحى الشباب المختمر ، وفى منبثق الرجولة الناضجة ، وكان يتمتع بجانب كبير من الجمال الجذاب .

قالت لميس ، وكانت تلاحظ حركاته فى عاطفة عميقة .

ـ أجل يا أمير المؤمنين ، أنت نعم المتاع لو بقيت لك هذه البشاشة خالدة ، ولكنه لا بقاء للإنسان ، ولقد تتجنبك كل المعايب إلا انك عرضة للفناء ....

فأجابها الملك :

ـ نعم يا لميس ان هذا لمن نكد الحياة على ابن آدم ، ولكن ما دام فى العالم قلبان متجاوبان ، يتبادلان الخفوق ، فإن ألم الحسرة للفناء سيظل أهون مما لو كانت الحياة الانسانية ناضبة من العطف ، اليس كذلك ؟

ـ بلى يامولاى ، بلى .

لفظت لميس الفتاة الرومية ، التى بدل اسمها الأصلى بهذا الاسم العربى

---

(١) كان مولده سنة ستين هجرية ـ تاريخ ابن خلدون الكبير .

هذا الجواب فى تلعثم ، وقد مال نصفها من الحركة التى سرت فى جثمانها الغض على أثر تضرع سيدها المحبوب أو «الملك الشاب» التى أناطت بشخصه كل ما يختلج فى صدرها من أمل مشرق ومالت تقبل يده فطبع على وجهها قبلة تحمل من غرامه القدر الذى لا يتلاشى أمام منطقه ، غير انه لا يبرز إلى درجة هيام العامة بالنساء ، ولكن الفتاة تذوقت فى هذه القبلة من السعادة والمسرة القدر الذى لا يتلاشى — أيضا — أمام ذلك الوقار الذى استفزه الدم العربى يتنزل إلى ملامسة الدم الأجنبى فى ساعة صفاء وغبطة .

كان سليمان اروستقراطيا بطبيعة الملك الذى اجتمع فيه مع الشباب الناضج المكتمل والعربية المحبوكة من جانبى الأب والأم ، وشرف الأسرة القرشية المالكة ، وعلو النسب فى العربية إلى عدنان ، وناهيك بأرومة عدنان فى النسب العربى ، هى الحسب العالى فى صميمه ، واللؤلؤة الساطعة فى عقد أنساب الناطقين بالضاد ، ومضرب المثل الأعلى للفاخرين بشرف الجدود من هؤلاء .

يضاف إلى هذا المزيج فى ارستقراطية سليمان خلقه الخاص فى عظمة النفس والعزوف بها إلا عن المظهر الأسمى حسبما توحى اليه غرائزه .

جلس الملك الشاب فى صدر الغرفة ، وأجلس حظيته المحبوبة إلى جانبه ولم تكن « لميس » فتاة عادية أو حظية مما يستعمل للمتعة فقط ، ولكنها كانت مستنيرة مثقفة ، فأخذت تبادل الملك آراءه فى مصير ذلك الجيش العربى الجرار الذى غادر العاصمة قبل لحظات وأخذت تطرى أمامه بسالة قائده مسلمة ، والعرفاء وشحنة الجند ، ولم يكن هذا الاطراء مما يقصد به المجاملة فى المديح المكذوب عادة ، فإن لميس كانت خبيرة بمواهب هؤلاء المحاربين .

وكان سليمان أعرف منها خبرة بكفايتهم ، فكان يصف لها الى أية درجة من الظفر يبلغ هذا الجيش الأموى ، حسب ما هو مزود به من الايمان القوى والعتاد الحربى ، والكفاية العسكرية ، والنظام الجليل .

ولندع الجيش يتغلغل فى صحراء الأناضول يتقدم شمالا ليقصد القسطنطينية على رأسه مسلمة بن عبد الملك أخو الملك لأبيه ، ولننظر إلى لميس وسليمان وهما فى ظرف يطغى عـــلى نزعات الارستقراطيـة ويطلب فى جو ذلك التعاطف سعادة الإنسان « الذى لن يبقى إلا مغمورا بألم الحسرة للفناء » كما قال قبل لحظة سابقة .

هنا يبرز « كيوبيد » بسهامه ، فيصمى الصديقين ويسود فى الغرفة جو تغذى فيه « فيفرس » عواطفها الروحية من « ادونيس »

كان الضحى جميلا أخاذا ، وأشجار السرو تميد حول قصر معاوية ، والنسيم العليل القوى يحمل إلى الغرفة روائح الأزهار ، من حدائق الغوطه ، وبرده « يصفق بالرحيق السلسل » كما وصفه حســـان شاعر بنى جفنة الغسانيين وينتهى دور الساعة الغرامية بين لميس وحبيبها العظيم .

ويبيح الملك الدخول لأفراد الحاشية ، وأسرة البيت المـالك للسلام والتشاور والمحادثة حسب العادة الجارية ، فيدخلون ويبتدىء الحديث .

— الملك ماترون فيما تقوله لميس عن جيش القسطنطينية ؟ إنها تطرى فيه البسالة التى تقول إنها لم ترها قط فى وجوه أفراد أى جيش آخر .

روح بن الوليد — ان الحقيقة العادية هى ان عمى مسلمة سوف لا يترك

هـذه الفرصة التى يترقبها من حين بعيد لبث ما يحمله بين جنبيه من حسن القيادة المعروفة عنه، والشجاعة التى كثيرا ما كان يغبطه من أجلها أبوه أمير المؤمنين عبد الملك.

العباس بن الوليد — الحق أنك يا روح تحب عمك أهول الحب، كما قالت عنك جدتى ولادة.

لميس — وكما قالت أيضا عاتكة بنت يزيد بن معاية.

روح — أوليس فيما ذكرته ما هو جدير بتفوق عمى مسلمة ؟

يزيد بن هشام - بلى ياروح ! غير أن عباسا لا ينفك يتعقب أقوالك دائما.

روح — ولكن لميس تقفى على أثره.

عباس — ألست ترى لميسا صريحة دائمة وواعية للأقاويل.

يزيد — إن لميس لمهذبة.

روح — نعم وإنها هى التى بدأت الحديث بالإعجاب بعمى مسلمة وإنها لتشاركنى فى الولوع بذكر كفاءته، اليس كذلك يا لميس. ؟

لميس - « تهز رأسها فى صمت ووقار علامة الإيجاب »

الوصيفة افريد - «تهمس فى اذن يزيد بن هشام وكان يحبها، إنى أرى روحا كثير الكلام فما رأيك ؟

يزيد - « يبادلها الهمس » هو ما تقولين.

الملك — وماذا قال مسلمة عند ما صح عزمه على أن يفعل بالجنود ؟ من منكم يذكر قوله ويعيد. ؟

لميس ـ أنا أذكر ذلك ، إنه قال : ان شاء الشعب العربى ليسمو فى حاضره ومستقبله إذا عرف كيف يستفيد من ماضيه ، وكيف يطبق الصالح ليس إلا على حياته ، ثم يمشى بخطوات متزنة إلى التطور الناجح ، كما فعل عمر بن الخطاب ومعاوية وعبد الملك ، الذين لم يتعصبوا التعصب الأعمى المزرى ، وها نحن أولاء ذاهبون لنفتح بعون الله مدينة قسطنطين المنيعة ، كما فتح عمر بلاد الفرس والروم الشرقيين ، وكما حاول معاوية فتح بلاد الروم الغربيين وأنشأ الأسطول للفتح العربى البحرى ، وكما استعمل عبد الملك الحضارة الجديدة فى تأسيس الدواوين والكتاب وصحف الرسائل ووضع السكة الإسلامية العربية ، ولم تقم دون عزائم هؤلاء خرافة من الوهم والضعف تسد عليهم طريق الحياة الاجتماعية المتسعة ، وإننا سنفتح القسطنطينية وسنصل بما فيها من حضارة الرومان ، وسوف لا نالو جهدا فى استعمال هذه الحضارة النافعة فى بلادنا ما دمنا عازمين على أن نسمو بشعبنا ورعيتنا إلى مستوى عظـــيم .

عباس ـ « يخاطب روحا » : ألم أقل لك إن لميس واعية للأقاويل ؟

روح ـ حقا إنها كذلك وإنها أيضا لمهذبة كما يقول يزيد .

عباس ـ اسمعها كيف تروى خطبة مسلمة التى ألقاها على الجمهور وهو يغادر المدينة بجيشه ، وكأنها لم تخطئ حرفا واحداً نطق به .

الوصيفة آفريد ـ « ليزيدهمسا » إنى لمسرورة جدا الساعة . إنهما يطريان سيدتى على مسمع منها ، وهى جديرة حقا بما يقال عنها . انظر يا يزيد كيف تشرق أسارير وجهها الصغير .

يزيد ـ إنها لهائلة .

الملك « يخاطب لميسا معلقا على حديثها » . أجل يالميس . هـذا ما قاله مسلمة ، وهذه هى أفـكارى أنا أيضا ، وأنت تعرفينها ، وإنى أنا سليل عبد الملك سأحافظ على تراثه الفكرى والأخذ بخطته فى تعميم الحضارة، وسأتوسع فى الأخذ بها حرصاً على مجد يطلبه كل ذى همة فى الوجود.

إن كاهلى يالميس لمثقل جدا (١) ، وكأنى أرزح تحت احمال هائلة فإنى لا أدرى ماذا سيكون حديث الناس عنى من بعدى اذا أنا قصرت فيما يرضى حاجات الأمة والبلاد ، ويحقق مطامـع هذا الشعب العربى الحى ؟ أنا راع مسئول عن رعيتى ، وعلىّ واجب كبير هو أن أتحمل المشقات وأصفح عن الأخطاء وأنفذ الرغبات الـكبيرة ، وهذه هى السبيـل التى تعلى شأن بلادى، وتجعل لى لسان صـــدق فى الآخرين ، هذه سبل المجـد والخلود للعظماء ، وسأكون ملـكا خالدا فى صحائف التاريخ .

يزيد بن هشام ـ وماذا تحاول أن تصنع للأمة بعد ؟

الملك ـ إذا طمعت أن يمدحنى الشعب وأن ينظر إلى الأجانب المجاورين بعين الإجلال فإن مدح الشعب الحقيقى لا يأتى إلا من طريق العمل لنفعه وتحقيق رغبات النافعين من رجاله ، واجلال الأجانب لا يأتى إلا من طريق مسابقتهم فى إعزاز شأن البلاد وبث روح العلم والعمل ووسائل العمران .

قال الملك أفكاره هذه ونادى الحاجب .

ويدخل الحاجب : فيأمره أن ينادى له مستشاره رجاء بن حيوه، ويحضر هذا فيخاطبه الملك قائلا :

---

(١) كان سليمان فصيحا مفوها تاريخ الخلفاء للسيوطى

اسمع يا رجاء إنى سأفتح بابى لرجالات البلاد وذوى التفكير الجيد منهم، وسأتصل بهم فى أيام متكررة من الشهر، وسأحيط علما بما يجول فى خواطرهم من الأفكار النافعة، لأعرف بنفسى ما يهم الأمة أن تكون عليه.

هذا شيء، وشيء آخر: إنك واسطتى إلى الناس فلا يسوّل لك الشيطان تشويه حديث تؤمر برفعه، أو كتمان حاجة يطلب ابلاغها إياى التماسا لمنفعة خاصة لك أو غرض سيء تتجاوبه نفسك، فإنما أنت خادمى وخادم الأمة معى، وعليك أن تكون أمينا فيما أقمتك عليه [1] وإنك لتعرضنى يا رجاء الى أحقاد ليس من العقل ان استهين بها ان انت اهملت هذا الشان من رشد السياسة العادلة.

وتلقى رجاء هذه الأوامر الحازمة من مولاه وهو مغتبط لإرادة الملك الجليل.

وأخذ اصحاب الحاجات الكبيرة يتصلون به وبالملك نفسه، وهذه هى الناحية الديموقراطية فى سليمان، ولكنها الديموقراطية الراقية التى لا تتصادم مع أروستقراطيته المهذبة ولكنهما تصطحبان، واخذ يسود فى الناس فى زمن الملك الاستقراطى الديموقراطى روح الثقة والتناصح وبذل الجهود النافعة، واخذت أفكار الجمهور تنقاد لبنى امية، وفهم الشعب روح الاسرة المالكة التى اكتسبت قوة معنوية من ميول الشعب المحب، وتفتحت امامها سبل جديدة لنجاح سياستها الداخلية بانضمام الشخصيات الممتازة الى معاونة الحكومة فى الأعمال التى صرفت فيها مواهبها بقوة وامانة واخلاص.

---

(١) كان سليمان مؤثرا للعدل، تاريخ الخلفاء وحياة الحيوان للدميرى.

* * * * *

وبعد ان خرج رجاء من مجلس الملك الخالد قال هذا لمحبوبته المثقفة :

ترى ماذا قال عنى الناس بعد ثورة اهل خراسان على عاملى فيها قتيبة ابن مسلم ، ذلك القائد العظيم الذى ذهب ضحية استعجاله وسوء ظنه ؟

قالت لميس : انهم قالوا إن مقتله كان بإيعاز أمير المؤمنين ، اوعلى الاقل انه صادف هوى فى نفسك من حيث انك كنت منحرفا عنه ، لما أبداه من الرأى لأخيك الوليد فى عزلك عن ولاية العهد واستبداله بك ابنه عبدالعزيز ، الأمر الذى كاد يتم لولا أن عاجلت المنية أخاك وكان حظك غالبا فيه .

فاعتدل سليمان فى مجلسه وظهرت على معارف وجهه امارات الجد وقال : ولكن الجمهور لايزن الأمور فى الغالب بميزان الحقيقة ، فانك تعلمين ويعلم الكثير من الناس أنى لا أضع الغرض موضع الواجب ، فإنى برغم ما بينى وبين هذا القائد العامل من التنافر ، فقد أجبت طلبه فى استبقائه واليا على خراسان ، وكتبت العهد بذلك وأنفذته اليه ، ولكنه كان غير واثق منى لما أسلفه من الإساءة الى قبل ولايتى الأمر ، فاراد ان يقلب الخراسانيين على بيعتى ، ظنا منه أنى لن انفذ رغبته فحاق به مكره السيىء وقام عليه الناقمون ، وفاء بعهد مليكهم الذى عرفوا صرامته وشرف مقاصده

وساعدهم على هذا العامل ماسبق له من الغدر بهم فى عهد أخى الوليد ، يوم أن كتب اليه الحجاج أن يختلهم ويغدر بهم .

أفلاترين أنى نقى الصفحة ، وان حماقة هذا القائد وانصياعه لآراء الحجاج ، ذلك الشرير العنيف هما الأمران اللذان اردياه الى هاوية هذا المصير المشئوم ؟

ترى الى أية درجة تفعل الحماقة بصاحبها ؟ أما وانى اقدر مواهب العبقريين وأجل النوابغ عرفانا بما لهم من سمو المكانة فى الانسانية، وأنى اعرف تماما ان العبقرية تشفع لصاحبها فيما قد يرتكبه من الاخطاء مهما كانت فداحتها. وهكذا أعلنت عقيدتى هذه بإبقاء قتيبة فى عمله على خراسان متناسيا تلك السفاسف التى لا تقلل فى نظرى من قيمة الرجل العملية فى المجتمع ، لأن العمل الذى سيقدمه لنفع الدولة يربو كثيرا على كل مابدر منه من هنات زالت بزوال ظرفها .

أما هؤلاء القائلون إن مقتله « صادف هوى فى نفسى» واستنتجوا من ذلك «أنه لا ينبغ النوابغ ولا تخلص قلوبهم اذا رأوا ان نتيجة اعمالهم ستكون على مثل ذلك ، فإنهم اجهل الناس بحقائق الاشياء ، فقد فاتهم ان الهفوات الشخصية يجب ان تتناسى امام ما ينطوى عليه المخطىء من المقدرة والاستعداد للنفع العام ، وان هذا النفع والمقدرة والكفاءة ستكتسح مافرط منه وستبنى له مجدا ومحبة لا يستطيع اكتسابها ذوو المقدرات التافهة والذكاء الرخيص.

وما أوقح تسرع القائلين فى الحكم دون ان يقفوا على حقائق الأمور واسبابها ومصادرها والمتسببين فيها والظروف الملجئة اليها .

انا الملك الخالد ، والملك الخالد هو الذى يرى موضع المجد فيطمع ان يجذبه اليه متقدما اليه بجرأة وصراحة وثقة ، لأنه يعرف ان النتيجة له .

أنا الملك الخالد سوف احقق خلودى على الأجيال بوضع كل شىء موضعه الواجب ، وبفتح عينى لطرف العظمة الصحيحة ، والخلود المنشود .

أعجبت « لميس » بصراحة الملك وصدق لهجته ونغمته على المتقولين بما ليس فى الوقع ، اولئك الهارفون بما لايعرفون ، وقامت تقبل رأسه وما بين عينيه ، وأطراف انامله ، واعترتها نشوة الظافر ، لما وجدته فى كعبة أملها من سمو الارادة والطموح الى المثل الاعلى ، ونضوج الآراء الكبيرة وهو ذلك الملك الشاب كما وصف نفسه ، ولكن سليمان وقف تيار هذه القبلات الحارة لما يدونه فى خاطره من الافكار الكبيرة واستمر فى حديثه يسألها :

ثم ماذا يقول القائلون عنى غير ما سلف ؟

فاهتبلتها « لميس » فرصة سانحة تتكلم هى بدورها عن نواحى العظمة فى حياته التاريخية ، فابتدرته قائلة :

« لقد اعترف الناس يامولاى بالنعمة التى خصصت بها ، فى فتح جرجان وطبرستان ذينك الاقليمين الهائلين العنيدين اللذين خضعا لسلطانك ، بالفتح المبين بعد أن أعيى ذلك سابور ذا الاكناف وكسرى بن قباذ وكسرى بن هرمز وأعيى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن جاء بعدهما من الخلفاء الى أن تم لك فيه الظفر والتوفيق ، أما رأيت هذا الاعتراف بالعظمة مجسما فى ألسنة الناس من خلال الرسالة التى كتبها اليك يزيد بن المهلب عاملك على خراسان ، ذلك القائد الذى تم على يديه هذا الفتح ؟ سر فى طريقك ياسيدى ، وامض الى الخلود الذى تنشده ، واغرس فى هذا الطريق ازهار الورد الناصع والنسرين القوى ليعبق اريجها للعابرين .

فأشرقت اسارير الملك ، واغتر بنفسه أمام هذه الحقائق وأمن على أقوال فتاته النابهة وقال : نعم سأسير ياليس فى هذه الطريق ، وانها لمفتوحة للسالكين .

ان طريق الخلود للملوك هى أن يفتحوا صدورهم لقبول مواهب العبقريين ، وان يمهدوا السبيل لبروز كفايات العاملين، وان يعملوا هم انفسهم للحياة الحاضرة ويعملوا للمستقبل ، المستقبل البعيد اعمالا تذكرها الأجيال الفاهمة ؛ وتعرفها الطبقات المستنيرة .

أما طريق الخلود لغير الملوك فهى أن يتقدموا بما يستطيعون من عمل وذكاء فى جرأة المقدم على المجهول ، وثبات السائر على الشوك ، ويقين المؤمن بذخيرة الحياة .

هـــلدا

« فتاة انـكليزية فى السادسة عشرة من عمرها تدعى : هلدا » ربتها زوج ابيها « اللايدى اليوث » بعد أن توفيت أمها حنة ، وقـــد حجرت عليها أن تفارق معمل الزجاج ليل نهار تكد فيه لتجنى العاتية ثمرة عملهـا . أحبها فتى فى مثـــل سنها يدعى « ادوارد » واحبته هى فكانت تسترق الاوقات للاجتماع به خفية فى أحـد المروج خارج « اكسفورد » حيث يتناجيان بأرق تعابير المناجاة وأبلغها ، فاذا غادرته إلى عملها المحتوم عليها ألا تتأخر عنه ناجى هو الطبيعة ،فى النبات الناجم، والشمس الذهبية،والأحراج والظلال.

ثم يصطـــدم الحبيبان بصـدمة الفراق المفاجىء حيث تضطر « الليدى اليوث » للرجعة الى « أمريكا » لقبض إرث زوجها الذى حضرها خبر وفاته تلغرافيا وتستصحب معها « هلدا » وتطول الغيبة تسعة اشهر حيث تصفى « الليدى اليوث » بنفسها حساب زوجها المتوفى مع الشركات فتشتـد الصاعقة على كليهما ويتبادلان الرسائل المليئة بعواطف الغرام والألم . . .

ثم تنشب « حرب المائة سنة » بـــين الانجليز والفرنسيين ، فينظم « ادوارد » فى سلك المحاربين ، ويبلى فى المعارك البـــلاء الحسن ثم يستشهد فى إحدى الوقائع البحرية . . . .

ويتصل ذلك الخبر المؤلم بـ « هلدا » فتعول على أن تحذو حـــذو « جان دارك » القديسة الفرنسية الباسلة « التى انقذت فرنسا فى سنة ١٤١٥

فى عهد « شارل السادس » بعد هزيمة واقعة « اجنكوار » فتنتقم لحبيبها وبلادها مستعينة بما فى وجدانها من قوة غرامها المكين على هذه التجربة ، فلئن نالت « جان دارك » القداسة والمجد الحربى بفضل الارواح العلوية كما كانت تزعم فإن « هلدا » لا يعجزها أن تنالهما بروح الحب . . .

وبشتى الوسائل الدقيقة تبلغ بغيتها فى التجنيـــد ، متنكرة تحت اسم مذكر هو : « هنرى لوينت » وتخوض المعركة . .

وتتنبه « اللايدى اليوث » للأمر فتسعى للكيد له « هولدا » التى لا تحبها والتى ملأها الحسد لها لفوزها وتقدمها ، وتستعين لإحباط مساعيها السياسية بوكيل معملها « مستر جرين » الذى سرق رسائل « هلدا » الغرامية لأدوارد نفسه بحيلة شيطانية ليفضح حقيقة امرها .

وتحس « هلدا » بهذا فتغرى بـ « مستر جرين » أناسا من اعوانها فيسرقون دفاتر حساباته المزورة ويتضح امر خيانته الادارية عند المسئولين فى الشركات بأمريكا فيسقط وتسقط معه « اللايدى أليوث » وتسترجع « هلدا » رسائلها المسروقة وتمضى فى مهمتها وتنتصر ، وترضى ضميرها بالانتقام لروح حبيبها .

وكما أصبحت « جان دارك » فى عداد الخالدين ـ أو الخالدات ـ اصبح روح هذه المغامرة الجديدة « هلدا » يرقى فى معارج العظمة ، متخذاً طريقه إلى مجد الخلود . .

* * * * *

هذا ملخص الهيكل الذى بنيت عليه هذه الأقصوصة فى أسلوبها المبسط ، وهى أقصوصة ضمنية أدمجت فى ثنايا قصتنا الكبيرة « طريق الخلود » على انها مكتوبة بقلم « نانا » بطلة قصة طريق الخلود ، كما أن أقصوصة « لميس » هى الأخرى ضمنية مدمجة فى تلك القصة الكبيرة ، على أنها مكتوبة بقلم بطل القصة (م ...) زوج نانا .

والحديث عن قصة « طريق الخلود » لا يتسع له مجال هذه الصفحات. وحسب القارىء أن يعرف انها قصة كبيرة اجتماعية ترمى إلى إصلاح المجتمع عن طريق المرأة المهذبة ، وربما أتيح لنا أن نطبعها وحدها — طبعا — فى مجلد أو مجلدين .

مؤلفات العواد

النـــثر :

خواطر مصرحة : مقالات ثائرة فى النقـد والأدب والاجتماع ، طبعت فى المطبعة العربية بالقاهرة ، ونفدت نسخها .

تأملات فى الأدب والحياة : أبحاث ومطالب أدبية ونظرات فى النفس والمجتمع .

من وحى الحياة العـــامة : مقالات قصار فى فلسفة الحياة واستيحاء واقعها العملى .

سليمان بن عبد الملك الأموى : قيمته الاجتماعية من طريق تحليل شخصيته .

رحـــلة القنفـــذة : مشاهدات موجزة عن هذه البلدة الساحلية فى جنوب المملكة السعودية .

رحـــلة نجـــد : لمحات خاطفة عن الشعر النبطى النجدى ، مع نماذج منه ، ووصف بعض العادات والأماكن والمشاهدات فى نجد .

المحـــتقب : قاموس صغير حديث الفكرة والترتيب ، يحمل فى الجيب والحقيبة .

موعـــد انسان : تعقيب دقيق ومراقبة وتسجيل لحياة طفلة فى نشأتها الأولى ، وفيه دراسة لأطوار الطفولة فى عرض محدود الهيكل واسع الأفق .

طريق الخـــلود : قصة اجتماعية كبيرة تهدف إلى تهذيب العائلة من طريق تثقيف المرأة .

لميـــس : قصة غرامية تمثل سمو العاطفة ، مستوحاة من التاريخ . وقد أدرجت فى هيكل قصة « طريق الخلود »

هـــلدا : أقصوصة موضوعها غربى وأبطالها انكليز .

تلخيص إلياذة هوميروس ـ تلخيص كتاب « التجديد فى الأدب الأنكليزى »

تابع مؤلفات العواد

الشعر -

أشعة الشروق : شعر فى سنيه العشر الأولى من الحادية عشرة الى العشرين.

الأصابيح : « « « « الثانية من العشرين الى الثلاثين

الآراد : « « « « الثالثة من الثلاثين الى الأربعين

الأوهاج : شعره بعد الأربعين ، ولا يزال هذا الديوان مفتوحا لم يتم بعد.

قوادم النسر : قصائده الشهيرة الطائرة كقصيدة «الحرب الخفية» فى أوربا التى نالت الجائزة العالمية للشعر العربى من لندن فى سنة ١٩٤٦

خوافى النسر : الأبيات والمقاطع المنطوية فى قصائده على افكار فلسفية أو نظرات عامة فى الحياة او صور مستقلة او تعابير تسرى مسرى الأمثال.

مخالب النسر : شعر المعارك الشخصية التى دارت بينه وبين الذين تركوا مجاراته فنيا الى حيث عمدوا لملاحاة لا ترفع قيمة الأدب.

* * * *

الساحر العظيم ، او يد الفن تحطم الأصنام

قصيدة واحدة من قصائد العواد الجبارة ، تحتوى على سبعة وستين مقطعا يضم المقطع الواحد منها خمسة عشر بيتا. فأبياتها كلها فوق الألف ، وموضوعها حياة عملية لشاعر فذ.

تنبيـــه

هذه المؤلفات كلها لم يطبع منها غير الكتابين النثريين الأولين ، أما الباقية فمخطوطة جاهزة مهيأة للطبع.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
الإهـــداء لجلالة الملك	٤
صورة المؤلف	٦
مقـــدمة	٧
الانسان والحياة	٩
العمل فى سبيل اللغة العربية	١٢
احترام النفس	١٧
مواضيع الحياة العامة	٢١
الشعر والفلسفة	٢٤
رجولة كاملة	٢٨
بنيتوموسوليني	٣٢
(١) الحالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى البلاد	٣٨
(٢) الحالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية	٤٢
علاقة الأدب بالعلم	٤٩
خواطر متداخلة	٥٢
التعاون العام بين أقطار الجزيرة	٥٦
ميدان الشباب	٥٩
أدب الإفلاس	٦١
عامية الحجاز وصلتها بالفصحى	٦٤
فى السبيل	٧٠
اعملوا للبلاد	٧٣
الجامعة الإسلامية	٧٦
حديث مع الرحالة الاندونوس	٨٢
إلى الأمام ، إلى الأمام	٨٦
أدولف هتلر	٨٩
مناقشـــة مثل	٩٣
أيها الموت : شعر منثور	٩٦
السـعادة	٩٨
فن الرواية	١٠٢
عود على قصة «مرهم التناسى»	١٠٦
الردعلى زوبعة مضحكة	١١٤
الفذاذة فى الشاعرية	١٢٠
أدب التقليـــد	١٢٢
الأدب الكاســد	١٢٨
نظرة عامة فى السياسة العالمية	١٣٢
فلسطين المنكوبة فى حريتها	١٣٥
الصحـــافة	١٣٩
هل للنجاح المحدود صلة بفضائل النفس الكبرى	١٤٤
وجوب الاستعداد للاحتفال بذكرى المتنبى	١٤٧
مؤسسة للبؤســاء	١٥٥
دار اليتامى فى وضعها الجديد	١٥٩
حياة سيد العرب	١٦٥
قصة الانتقام الطبعى	١٧٦
ذكريات	١٨٢
شئون	١٨٥
مناقشـــة	١٨٨
هل يتأزم الأدب	١٩٠
كيف ينظم الشعر	١٩٢
الشيطان العاشق	١٩٤
الهـــولة	١٩٧
لميس	٢٠١
هـــلدا	٢١٤

DATE DUE

عواد ،محمد حسن
تأملات في الادب والحياة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01036255

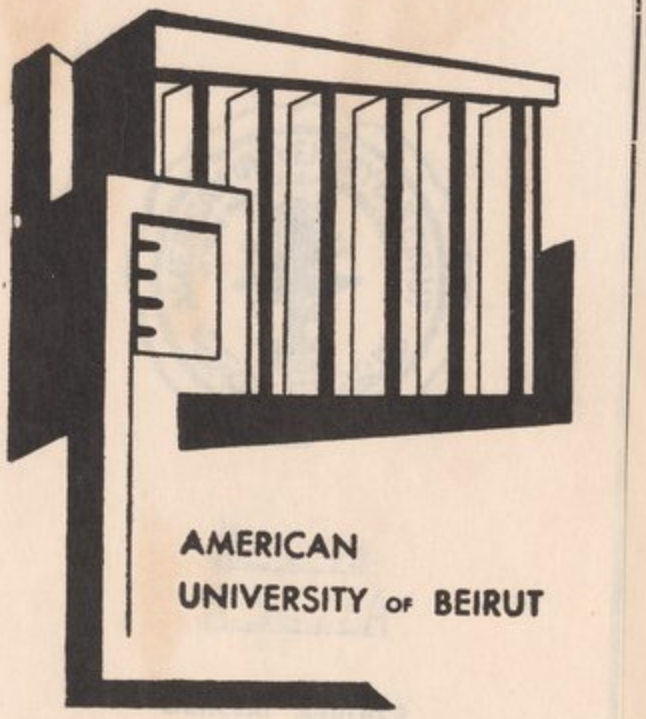

892.74
A967tA